غي دو موباسان



«صديقان» وقصص أخرى

(قصص للناشئة والكبار)



ترجمتها عن الفرنسية

سيلفانا الخوري

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

غي دو موباسان

«صديقان» وقصص أخرى

(قصص للناشئة والكبار)

ترجمتها عن الفرنسية

سيلفانا الخوري

مراجعة

كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PQ2349 .A212 2012
Maupassant, Guy de, 1850-1893
[القصص القصيرة. مختارات]
«صديقان» وقصص أخرى: قصص للناشئة والكبار / تأليف غي دو موباسان؛ ترجمة سيلفانا الخوري، مراجعة كاظم جهاد.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، مشروع «كلمة»، 2012.
ص. 206 ؛ 17,8×12,5 سم
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
ترجمة كتاب : *Deux amis* et autres nouvelles
تدمك: 6-167-17-9948-978
قصص للناشئة والكبار.
أ- الخوري، سيلفانا. ب- جهاد، كاظم

هذه ترجمة لنصوص الكاتب الفرنسيّ غي دو موباسان

«صديقان» وقصص أخرى

Guy de Maupassant

Deux amis et autres nouvelles

لوحة الغلاف للرسّام الفرنسيّ كلود مونيه، «طريق عبر حقول القمح في بورفيل» (1882)

Claude Monet, *Chemin dans les blés à Pourville* (1882)



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - القصيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

«صديقان»
وقصص أخرى

المحتوى

هذه السلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات،

بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى

منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

هذا الكتاب

اخترق غي دو موباسان (1850-1893) حياته كالنيزك، وكان عمره الأدبيّ بخاصّة شديد الوجازة، إذ ينحصر إنتاجه الروائيّ والقصصيّ في عشر سنوات. مع ذلك أفلح، إلى جانب صديقيه غوستاف فلوبير وإميل زولا، في أن يدمغ بميسمه العميق الأدبَ الفرنسيّ والأدب الحديث كلّه. برواياته الستّ وما لا يقلّ عن ثلاثمائة حكاية وقصّة قصيرة، ساهم في التأسيس للواقعيّة والطبيعيّة في الأدب، وتجاوزَهما بقوّة الشّعر في كتابته السرديّة وبرفضه أن تكون مهمّة الروائيّ والقاصّ مقتصرة على سرد وقائع وأحداث. كتب في تقديم روايته «بيار وجان» *Pierre et Jean* أنّ الكاتب «لا يتمثّل هدفه في سرد حكاية ولا في تسليتنا وإثارة عواطفنا، بل في إجبارنا على التفكير في المغزى الخفيّ للأحداث... رؤيته الشخصيّة للعالَم هي ما يريد إيصاله لنا في كتاب».

والحال أنّ ما هو مترجَم إلى العربيّة من آثار رائد السّرد الحديث هذا يتميّز بندرته، لا بل بضآلته. من هنا جاءت هذه المختارات القصصيّة لتسدّ فراغاً في لغة الضادّ. والقصص المجتمعة هنا مكتوبة أصلاً للكبار، إلاّ أنّ العديد من دور النشر

الفرنسيّة تضمّها إلى مختاراتها للناشئة لما تتمتّع به من بساطة عميقة وأسلوب أخّاذ ورؤية نافذة لمفارقات الوجود الإنسانيّ. فرأينا أن نحذو حذوها في هذه السّلسلة، آملين أن ينجذب إلى قراءة هذا الكتاب كلّ من الناشئة والكبار.

كعادته، يبرع موباسان في القصص التالية في الكشف عن فظائع الحرب واكتناز حياة أفراد بسطاء بأبعاد تكاد تكون ملحميّة، وعن نشأة العواطف والأهواء وتحوّلها، وعن عمل الذكريات.

كُتبت هذه القصص بين العامين 1882 و1886 ونُشرت في الصفحات الأدبيّة لبعض الصحف الفرنسيّة قبل أن يضمّها الكاتب إلى مجموعاته القصصيّة. ويخضع ترتيبها هنا إلى اعتبارات فنيّة وليس كرونولوجيّة أو تحقيبيّة، علماً بأنّ كلاًّ منها جاءت مذيّلة بتأريخ نشرها الأوّل.

المحرّر

مقدّمة المترجمة

يُعتبر غي دو موباسان أبا القصة القصيرة. له ما يقرب من ثلاثمائة قصّة ينتمي بعضها إلى الواقعيّة والبعض الآخَر إلى الأدب الفنتازيّ، نُشرت كلّها في الجرائد قبل أن تُجمع في كُتب. وصفَ في الفئة الأولى من قصصه منطقة النّورماندي التي هي مسقط رأسه بطبيعتها وعادات أناسها وتقاليدهم ليفضح لا تناقضاتهم وحدها بل تناقضات الجنس البشري بعامّة، ملقياً على الحياة نظرة سوداويّة ومتشائمة. أمّا في الفئة الثّانية فقد خلق بوصفه الدّقيق وبراعته التّقنيّة أجواءً قلقة ومتوتّرة تعكس هواجسه هو نفسه ووهنه العصبيّ الذي سيصل به إلى الجنون.

تجمع هذه المختارات خمس عشرة قصّة تنتمي كلّها إلى الواقعيّة وتشكّل أنموذجاً أسلوبيّاً لهذا الجنس الأدبيّ. قصصٌ تمتاز خصوصاً بكونها مفتوحة على قراءات متعدّدة، من هنا إمكانيّة تقديمها لكلٍّ من النّاشئة والكبار. ورغم اختلاف ثيماتها وعوالمها يجمعها كلّها انسداد الأفق والشّعور بالخيبة من حياةٍ لا ترقى إلى توقّعات الأفراد الذين هم في معظمهم أبطالٌ مُضادّون، هامشيّون، نساءٌ في الغالب الأعمّ، تكشف تصدّعات داخليّة صغيرة عن وجوههم ووجوههنّ الأكثر إنسانيّة.

تشكّل حرب 1870 الفرنسيّة-الألمانيّة[1] والاحتلال البروسّي-الألماني لفرنسا إطاراً لأكثر من قصّة يُظهر فيها الكاتب عبثيّة المنطق الاحترابيّ مفكّكاً كلّ البلاغة التي تحيط به ومُعيداً صوغ قيم كالبطولة والشّجاعة والاستشهاد، فيُخرجها من إطارها الضيّق ليُعيدها إلى أفقها الانسانيّ الأشمل. أبطاله فرنسيّون وألمان، رجالٌ ونساء يقاومون الحرب بالبحث عن مساحات للحبّ والملذّات الصّغيرة. مقاومة لا مكان فيها لأيّ إيديولوجيا، إنّها مقاومة النّاس البسطاء، هؤلاء الذين يكنّون للحرب كَرهاً فطريّاً. لكنّها، أي الحرب، لا تكفّ عن اللّحاق بهم ومحاصرتهم.

ففي قصّة «الصّديقان» التي تفتتح المجموعة، يدفع الولع بصيد السّمك صديقين فرنسيّين إلى الذّهاب للصّيد على خطوط التّماس بينما الحرب مستعرة. هذه الرّغبة الملحّة ستكون سبباً في هلاكهما، إذ يُلقي الألمان القبض عليهما ويتّهمونهما بالتّجسّس

(1) الحرب الفرنسيّة-الألمانيّة المسمّاة كذلك الحرب الفرنسيّة-البروسيّة، دامت من 19 تمّوز/يوليو 1870 إلى 29 كانون الثّاني/يناير 1871، ودارت بين الإمبراطوريّة الفرنسيّة الثّانية ومملكة بروسيا الألمانية. انتهت الحرب بسقوط الإمبراطوريّة الفرنسيّة وخسارة فرنسا لمنطقة «الألزاس-موزيل». وكان سببها رغبة البروسيّين في السّيطرة على كامل ألمانيا التي كانت آنذاك مجموعةً من الدّول المستقلّة، وهذا ما تمّ لهم إذ أزاحوا مملكة النمسا القيصرية عن قيادة الدّول الألمانية وأسّسوا عام 1871 الإمبراطورية القيصرية الألمانية، التي أصبحت بروسيا العضو الاتّحاديّ المسيطر فيها (المترجمة).

ويعدمونهما رمياً بالرّصاص. ولكن حتّى آخر لحظة، يواجه الصّديقان مصيرهما بهدوءٍ فيه من الرّفعة والسموّ ما يتناقض تناقضاً صارخاً مع الموت العبثيّ والمجانيّ الذي قادتهما إليه رغبة أشبه ما تكون بالنّزق والطّيش الطّفوليّين.

في «مغامرة فالتر شنافْس» يذهب موباسان أبعد في تفكيك فكرة البطولة وأسطورة الجنديّ الباسل والشّجاع، مصوّراً تلك الحرب ككذبة والأعداء كوهمٍ جماعيّ تبتكره مخيّلات مذعورة. بطله هنا جنديّ ألمانيّ «يكنّ كرهاً رهيباً، كرهاً غريزيّاً ومدعوماً بالحجج في الآن ذاته، للمدافع والبنادق والمسدّسات والسّيوف...» (ص. 47-48). كلّ شيءٍ فيه يتناقض وصورة الجنديّ النمطيّة: سمنته، خوفه، قلقه على عائلته، رغبته في تسليم نفسه للأسر طلباً لسقفٍ آمن ولقمة عيشٍ مضمونة. هنا البطولة ليست إلاّ وهماً على غرار «المعركة» التي ستنتهي بأسر فالتر شنافس، خداعاً يكتسي بُعداً جماعيّاً ويجعل من بائع الأقمشة ضابطاً محرِّراً تُعَلَّق على صدره الأوسمة.

فالبطولة بالنّسبة لكاتبنا هي أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. قد تظهر في وجهها البدائيّ والغريزيّ الأوّل على شكل أمومةٍ جريحة، كما في قصّة «الأمّ سوفاج»، أو تتّخذ شكل تضحية بالذّات في سبيل الحبّ كما في «مُصْلِحة الكراسي» أو في «كلوشيت».

في «الأمّ سوفاج» (والاسم يعني «متوحّشة») تستضيف هذه العجوز الفرنسيّة في منزلها أربعة جنودٍ ألمان من جنود الاحتلال وتعيش معهم على وئام، لا بل «تحبّهم كثيراً، أعداءها الأربعة أولئك» (ص. 37). ولكنّها لمّا تتلقّى خبر مقتل ابنها الوحيد على الجبهة تقوم بإحراق منزلها بسكّانه الأربعة انتقاماً، قبل أن تُعدَم رمياً بالرّصاص على بقايا جدران المنزل المحترق نفسه. أجلاّد هي أم ضحيّة؟ أجريمةٌ ما قامت به أم بطولة؟ يترك النّص السّؤال مفتوحاً. وفي وصفه لحظة إعدامها، يُخبرنا الكاتب كيف اصطفّ اثنا عشر جندياً وأطلقوا الرّصاص عليها في الوقت نفسه، إلاّ رصاصة واحدة انطلقت متأخّرة: هي لحظة الشّكّ ولا بدّ، لحظة التردّد التي تختصر المسألة كلّها.

في معظم قصصه، يضع موباسان وجهاً لوجه شخصيات مختلفة إلى حدّ التناقض ومتفاوتة العمق الرّوحيّ ويتركها تفصح عن ذواتها، فتفضحها وتفضح معها هشاشة الفروق الطبقيّة والبُعد الإشكاليّ للرّوابط الإنسانيّة والاجتماعيّة. وفي كلّ مرّة، لا مكان للرّومانسيّة في مقاربته للحياة بل نراه يلقي عليها نظرة واقعيّة وحزينة. نظرة تبلغ أبهى تجلّياتها في قصّة «رقصة المونُوَيه» التي يقدّم فيها وصفاً للشّيخوخة، ومن خلال هذه الأخيرة للحياة بعامّة، فيه مزيج من الحنان والشّفقة. الشّفقة على أعمارٍ

مهدورة في نضالات عبثيّة وبطولات وهميّة كما في قصّة «الحلْية» التي تختتم المجموعة، حيث تُفني امرأة عمرها في تسديد دينٍ يتّضح فيما بعد أنْ لا وجود له بالأساس.

سيلفانا الخوري

صديقان

كانت باريس مُحاصَرة وجائعة وتختنق بحشرجاتها. طيور الدّوري اختفت أو تكاد من على السّطوح، والمجاري أقفرت من مستوطنيها. وكان النّاس يأكلون أيّ شيء.

في أحد صباحات كانون الثّاني المُشرِقة، بينما كان السيّد موريسو، وهو ساعاتيّ يعمل من حينٍ لآخر خفيراً[1]، يتمشّى حزيناً على طول الجادّة الرئيسة، يداه في جيبَي سرواله ومعدته فارغة، توقّف فجأةً أمام متنزِّه آخَر تبيّن أنّه صديق له. كان ذلك

(1) بالفرنسية: Pantouflard ، وكانت هذه الصّفة تُطلَق خلال حصار باريس بين 1870 و1871 على الرّجال المتقدّمين في السّنّ الذين لا يذهبون إلى القتال ويعملون خفراء لحفظ الأمن الدّاخليّ (المترجمة).

هو السيّد سوفاج، واحد من معارفه الذين اعتاد ملاقاتهم على ضفّة النّهر.

قبل الحرب، كان موريسو ينطلق مع الفجر، في يده عصا من الخيزران، وعلى ظهره علبة من التّنك. كان يستقلّ القطار من أرجانتوي وينزل في كولومب ويكمل سيراً حتّى جزيرة مارانت. وما إن يصل إلى مكان أحلامه ذاك، حتّى يشرع بالصيّد بالصنّارة ويستمرّ حتّى هبوط الظلام.

كلّ نهار أحد، كان يجد هناك رجلاً ممتلئ الجسم بشوشاً اسمه «سوفاج»، وهو بزّاز من شارع نوتر-دام-دو-لوريت، شغوفٌ مثله بصيد السّمك. غالباً ما كانا يُمضيان نصف النهار جنباً إلى جنب، كلّ منهما صنّارته في يده وقدماه تتأرجحان فوق المياه الجارية، فنشأت بينهما صداقة.

كانا في بعض الأيّام لا يتبادلان الكلام. وفي أيّام أخرى كانا يتحادثان. ولكنّهما كانا على وفاقٍ تامّ من دون الحاجة للكلام من فرط ما كانت أذواقهما متشابهة وأحاسيسهما واحدة.

في الرّبيع، في حوالى العاشرة قبل الظّهر، بينما تكون الشّمس التي استعادت وهجها تنشر فوق النّهر السّاكن ذلك البخار الخفيف الذي ينساب مع المياه ويسكب على أكتاف الصّيّادَين الشّغوفَين دفء الموسم الجديد، كانَ يحْدث لموريسو أن يقول

لجاره: «ما أجمله من طقس!»، فيجيب سوفاج: «إنّه الأجمل على الإطلاق!». وكان ذلك كافياً ليكونا على تفاهم تامّ وتقدير متبادل.

أمّا في الخريف، عند أوقات المغيب، بينما السّماء المخضَّبة بأشعّة الشّمس الآيلة إلى الأفول ترمي في المياه أشكالاً من السّحب قرمزيّة اللّون، وتضرّج النّهر بكامله، وتُلهب الأفق، وتتوهّج كالنّار بين الصّديقين، وتلوّن بالذّهبيّ الأشجار التي طالها الشّياط باكراً لترتجفَ برعشةٍ شتائيّةٍ، فقد كان سوفاج ينظر إلى موريسو مبتسماً ويقول: «يا له من مشهد!»، فيجيب موريسو منبهراً ونظره لا يفارق عوّامة صنّارته: «أليس هذا أفضل من التنزّه في الجادّة؟».

ما إن عرف أحدهما الآخَر في ذلك الصّباح حتّى تصافحا بحرارة وقد ألهب مشاعرَهما ذلك اللّقاء الذي يحصل في ظروف مختلفة تماماً عمّا في الماضي. فأطلق سوفاج تنهيدةً وهمسَ: «يا للأحداث الفظيعة!»، وإذا بموريسو يجيب بأنّةٍ وهو مقطّب الوجه: «وفي طقسٍ كهذا! إنّه أوّل يومٍ مشمس في السّنة».

فعلاً، كانت السّماء زرقاء تماماً ومُشعّة.

ثمّ شرعا يسيران جنباً إلى جنب حالمَين وحزينَين، وهوَ ذا موريسو يتابع: «ماذا عن الصّيد؟ ما أجملها من ذكريات!»

فسأله سوفاج: «متى نذهب لنصطاد من جديد؟»
ودخلا إلى مقهى صغير واقتسما قنّينة من شراب الأفسنتين ثمّ شرعا يتمشّيان على الأرصفة.
فتوقّف موريسو فجأة وقال: «ما رأيك بقنّينة ثانية؟»، فأجاب سوفاج موافقاً: «أنا متأهّب!». ودخلا عند بائع مشروبات آخَر.
ولّما خرجا كانا مشوّشين إلى حدٍّ ما. كان الطّقس دافئاً ونسيمٌ رقيقٌ يداعب وجهيهما. فتوقّف سوفاج وقد جعله الهواء الدّافئ ينتشي تماماً وهتف:
- ما رأيك لو ذهبنا إلى هناك؟
- أين، هناك؟
- إلى الصّيد.
- ولكن في أيّ مكان؟
- على جزيرتنا طبعاً. إنّ مراكز الجيش الفرنسيّ الأماميّة موجودة قرب كولومب. وأنا أعرف العقيد دومولان، لذا سيسمحون لنا بالمرور بسهولة.
فارتعش موريسو من فرط رغبته وأجاب: «موافق! أذهب معك». وافترقا ليُحضر كلّ منهما عدّة الصّيد الخاصّة به.
وبعد ساعةٍ كانا يمشيان على الجادّة جنباً إلى جنب ثمّ بلغا الفيلاّ التي يقطنها العقيد. فابتسم هذا الأخير لطلبهما وسمح لهما

بتحقيق نزوتهما. فانطلقا مجدّداً وفي حوزتهما رخصة مرور.

وسرعان ما تخطّيا المراكز الأماميّة واجتازا مدينة كولومب المهجورة ليجدا نفسيهما قرب الكروم الممتدّة نزولاً باتّجاه نهر السّين. كانت السّاعة حوالى الحادية عشرة.

في الجهة المقابلة، كانت مدينة أرجانتوي تبدو ميتة. ومرتفعات أورجيمون وسانوا تُشرف على المنطقة بأكملها. أمّا السّهل الشّاسع الذي يصل حتّى نانتير فكان مقفراً، مقفراً تماماً إلاّ من أشجار الكرز العارية والأراضي الرّماديّة.

فهمس سوفاج وهو يشير بإصبعه إلى القمم: «البروسيّون في الأعلى!». وكان قلقٌ شالٌّ يعتريهما إزاء ذلك الخلاء.

البروسيّون! لم يكونا قد رأيا يوماً بروسيّين، ولكنّهما كانا يشعران بحضورهم منذ شهور حول باريس، يخرّبون فرنسا وينهبون ويقتلون ويجوِّعون، غير مرئيّين وأقوياء. فكان نوعٌ من الرّعب المتطيّر ينضاف إلى الكره الذي يكنّانه لذلك الشّعب المجهول الظّافر.

فقال موريسو متلعثماً: «ماذا لو وقعنا على أحدٍ منهم؟»

فأجاب سوفاج بتلك النّبرة التّهكّميّة الباريسيّة التي عاودت الظّهور رغم كلّ شيء: «نقدّم لهم عندئذٍ سمكاً مقليّاً».

ومع ذلك كانا متردّدَين في المجازفة باجتياز الرّيف وقد

أوجلهما الصّمت المسيطر على الأفق بأكمله.

ولكن في خاتمة المطاف حسمَ سوفاج الأمر قائلاً: «هيّا، فلننطلقْ! ولكنْ بحذر!». وتوغّلا نزولاً في أحد الكروم، حانيَين ظهرَيهما وزاحفَين زحفاً، متدثّرَين بالأدغال ومتوقّدَي النّظر والسّمع.

كان ما يزال عليهما أن يقطعا خلاءً للوصول إلى ضفّة النّهر. فشرعا يركضان وما إن بلغا حافّة النّهر حتّى لاذا بالقصب اليابس.

ألصق موريسو خدّه بالأرض ليتأكّد من أنّ أحداً لم يكن في الأنحاء. فلم يسمع شيئاً. كانا بالفعل وحدهما، وحدهما تماماً.

فاطمأنّا وشرعا يصطادان.

قُبالتهما، كانت جزيرة مارانْت المهجورة تحجبهما عن الضفّة الأخرى. والمنزل الصّغير الذي يضمّ مطعماً كان مغلقاً ويبدو مهجوراً منذ سنين.

أوّل غجوم[1] اصطاداه كان من نصيب سوفاج. والثّاني اصطاده موريسو. وعلى هذا المنوال راح كلّ منهما يرفع صنّارته من حينٍ لآخر وفي طرفها تنتفض سمكة صغيرة فضيّة. كان ذلك صيداً عجائبيّاً بحقّ.

(1) سمك نهريّ (المترجمة).

بعد ذلك راحا يضعان بعنايةٍ الأسماكَ في كيسٍ من الشّبك ضيّق الزّرد كان يتدّلى في الماء تحت أقدامهما. فكان يغمرهما فرحٌ لذيذٌ، ذلك الفرح الذي ينتاب المرء عندما يستعيد ملذّةً حُرم منها طويلاً.

كانت الشّمس الجميلة تسكب دفئها فوق أكتافهما. فما عادا يسمعان شيئاً ولا يفكّران في شيء. كانا غافلين عن بقيّة العالم. كانا يصطادان.

ولكن فجأةً تعالى دويٌّ قويّ بدا طالعاً من جوف الأرض وجعلها ترتجّ. كان المدفع قد عاود هديره.

إلتفت موريسو ولمح خلف الضفّة، هناك من جهة اليسار، جبل الفاليريان العظيم مكلّلاً بقنزعةٍ بيضاءَ، سحابةٍ من البارود كان قد لفظها للتوّ.

وسرعان ما انطلقت من قمّة القلعة رشقة من الدّخان أخرى تبعها بعد لحظاتٍ انفجارٌ آخَر.

ثمّ توالت الانفجارات، ومن حينٍ إلى حينٍ كان الجبل ينفث لهاث الموت وينفخ أبخرته الحليبيّة التي تروح ترتفع ببطءٍ صوب السّماء السّاكنة مشكّلةً غيمةً فوقه.

فهزّ سوفاج كتفيه وقال: «ها قد استأنفوا صنيعهم!».

أمّا موريسو، الذي كان ينظر بقلقٍ إلى عوّامة صنّارته وهي

تغرق شيئاً فشيئاً، فانتابه فجأةً غضبُ رجلٍ اعتاد هناءة البال من أولئك المسعورين الذين يتقاتلون على تلك الشّاكلة فدمدمَ: «يا لهم من حمقى ليقتتلوا بهذه الطّريقة!».

فأردف سوفاج من جهته: «إنّهم لأسوأ من البهائم!».

وكان موريسو قد اصطاد لتوّه زينابةً[1]، فأعلنَ: «وسيظلّ الأمر هكذا طالما وُجدت حكومات!».

فأوقفه سوفاج عن الكلام: «ولكنّ الجمهوريّة الفرنسيّة ما كانت ستعلن الحرب...»

فقاطعه موريسو بالقول: «في عهد ملوكنا كانت الحرب تقع في الخارج، ومع الجمهوريّة باتت ناشبةً في الدّاخل!»

وبهدوءٍ راحا يتحادثان عارضَين المسائلَ السياسيّة بالمنطق السّليم الذي يتمتّع به الرّجال الطّيّبون والبسطاء، ومتّفقَين على أنّ الحريّة أمرٌ مستحيل. في تلك الأثناء كان جبل الفاليريان يدوّي بلا هوادة، مدمِّراً بالقذائف منازل فرنسيّة، مُهلكاً حياة ساكنيها وساحقاً كائنات كثيرة وقاضياً على الكثير من الأحلام والأفراح الموعودة ولحظات السّعادة المُرتجاة، ومُحدِثاً هناك، في بلدان أخرى، في قلوب نساءٍ وفتياتٍ وأمّهاتٍ آلاماً بلا انتهاء.

قال سوفاج: «إنّها الحياة!».

---

(1) جنس من السّمك أبيض اللّون (المترجمة).

فأجابه موريسو ضاحكاً: «لا بلْ قلْ إنّه الموت!».

إلاّ أنّهما انتفضا فَزِعَين وقد أحسّا بخطواتٍ خلفهما. فاستدارا ولمحا أربعة رجال. أربعة رجالٍ مسلّحين وملتحين يرتدون ملابس شبيهة بملابس الخدم ويعتمرون قبّعات مسطّحة وموجِّهين صوبهما فوّهات بنادقهم.

فأفلتت الصّنّارتان من أيديهما وراحتا تغرقان في النّهر.

وبلحظاتٍ قُبض عليهما وقُذِفَ بهما في قارب ونُقِلا إلى الجزيرة.

وخلف المنزل الذي حسِباه مهجوراً رأيا نحو عشرين جنديّاً ألمانيّاً.

وإذا برجلٍ ضخم ومُشعِر جالسٍ بالمقلوب على كرسيٍّ يدخّن غليوناً كبيراً من الخزف الصينيّ يسألهما بفرنسيّة ممتازة: «حسناً أيّها السيّدان، هل كان صيدكما موفّقاً؟».

فاقترب جنديّ ووضع أمام الضّابط الكيس الشّبكيّ المملوء سمكاً وقد حرص على أن يحمله إليه. فابتسم البروسيّ وقال: «آه! آه! أرى أنّ الأمور كانت تسير بشكلٍ جيّد. ولكنّ الأمر لا يتعلّق بصيد السّمك. أصغيا إليّ ولا تجزعا.

«أعتقد أنّكما جاسوسان أُرسِلا لمُراقبتي. سآسِركما وأُعدمكما رمياً بالرّصاص. لقد كنتما تتصنّعان الصّيد لإخفاء مخطّطاتكما. ولكنّكما وقعتما بين يدَي. هي غلطتكما، فنحن في الحرب. ولكن

بما أنّكما قدِمتما من جهة المراكز الأماميّة فلا بدّ أنّ بحوزتكما كلمة سرّ. أعطياني كلمة السرّ هذه فأعفو عنكما.»

كان الصّديقان يقفان جنباً إلى جنب، ممتقعَي الوجهين وصامتَين، فيما تهزّ أيديهما رجفةٌ عصبيّةٌ خفيفة.

فتابع الضّابط: «لن يعلم أحدٌ بالأمر وستعودان بسلام ويختفي السرّ معكما. ولكن إن رفضتما فمصيركما هو الموت فوراً. اختارا».

فبقيا جامدين لا يُفتح لهما فم.

فأكمل البروسيّ محافظاً على هدوئه وهو يشير بيده إلى النّهر: «فكّرا أنّكما بعد خمس دقائق ستكونان في قاع هذه المياه. خمس دقائق! لا بدّ أنّ لكلّ منكما عائلة!».

كان جبل الفاليريان يواصل دويّه.

والصّيادان واقفان صامتَين. فوجّه الألمانيّ أوامر بلغته. ثمّ غيّر مكان كرسيّه لكي لا يظلّ قريباً من الأسيرَين. فحضر اثنا عشر رجلاً وتمركزوا على بُعد عشرين خطوة وقد أنزلوا أسلحتهم عن أكتافهم.

وأردف الضّابط: «أُمهلكما دقيقة، ولا ثانية إضافيّة».

ثمّ نهض فجأةً واقترب من الفرنسيَّين وأمسك موريسو من ذراعه وابتعد به وقال له بصوتٍ خفيض:

«أعطني بسرعة كلمة السّر. صديقك لن يعلم بشيء وسأتصرّف كما لو أنّني أشفقتُ عليكما».

ولكنّ موريسو لم يُجب بشيء.

فابتعد البروسيّ بالسيّد سوفاج وطرح عليه السّؤال نفسه.

ولم يُجب سوفاج بشيء.

فوجدا نفسيهما من جديد جنباً إلى جنب.

وجّه الضّابط أوامره. فرفع الجنود أسلحتهم.

عندئذٍ وقع نظر موريسو بالصّدفة على الكيس المليء بالسّمك الذي كان لا يزال على العشب على مسافة خطوات منه. كانت أشعّة الشمس تجلّل بالبريق كومة السّمك التي كانت ما تزال تصطرع، فاجتاحته بوادر الخوف. ورغماً عنه، اغرورقت عيناه بالدّموع.

وقال متمتماً: «وداعاً سيّد سوفاج!».

فأجاب هذا الأخير: «وداعاً سيّد موريسو!».

وتصافحا وهما يرتجفان من الرّأس حتّى أخمص القدمين.

وصرخ الضّابط: «أطلقوا النّار!»

فانطلقت الطّلقات الاثنتا عشرة كأنّها واحدة.

فخرّ سوفاج على وجهه مباشرةً. أمّا موريسو، وكان أطول منه قامةً، فتأرجح ودار على نفسه ثمّ سقط بالعرْض على رفيقه

ووجهه مرفوع صوب السّماء، فيما الدّماء تفور من قميصه المثقوب عند الصّدر.

ثمّ وجّه الألمانيّ أوامر جديدة.

فتفرّق رجاله ثمّ عادوا ومعهم حبال وحجارة أوثقوها إلى أقدام الميتَين قبل أن يحملوهما إلى جرف النّهر.

كان جبل الفاليريان ما انفكّ يدمدم، وقد جلّلته كتلة من الدخان.

حمل جنديّان موريسو من رأسه وقدميه، فيما حمل آخران سوفاج بالشّاكلة نفسها. ثمّ أرجحوا الجثّتين بقوّة ورموهما بعيداً فرسمَتا قوساً في الهواء قبل أن تغوصا عموديّاً في النّهر وقد جعلت الحجارةُ الأقدامَ تغرق هي الأولى.

فعاودت المياه الارتفاع وفارت وارتجفت ثمّ سَكَنت، فيما اندفعت موجات خفيفة صوب الضّفّتين يعوم على سطحها شيءٌ من الدّم.

فقال الضّابط بصوتٍ هامس، وبدون أن يفقد رباطة جأشه: «والآن إلى الأسماك».

ثمّ قفل راجعاً باتّجاه المنزل.

وفجأةً لمح كيس الأسماك على العشب، فالتقطه وعاينه ثمّ ابتسم وصاح: «يا فيلهلم!».

فهرع جنديّ يرتدي صِداراً أبيض، فرمى إليه الضابط البروسيّ حصيلة صيد الرّجلين اللّذين أُعدما للتوّ وقال له آمِراً: «إقلِ لي فوراً هذه الحيوانات الصّغيرة وهي لا تزال حيّة. ستكون وجبةً لذيذة!».

قال ذلك وعاود تدخين غليونه.

5 شباط/فبراير 1883

الأمّ سوفاج[1]

I

لم أزر فيرلونيي منذ خمسة عشر عاماً. عدتُ إليها في الخريف بهدف الصّيد وحللتُ في منزل صديقي سرفال الذي أعاد أخيراً بناء قصره الذي كان قد هدّمه الألمان.

كنتُ أحبّ هذه المنطقة حبّاً جمّاً. ثمّة في العالم أماكن عذبة تمارس على العينين سحراً شهوانيّاً. نحبّها حبّاً جسديّاً. ونحن الذين تُغرينا الأرض، نحتفظ بذكرياتٍ بالغة الحنان لبعض الينابيع والغابات والبِرَك والرّوابي التي كثيراً ما كنّا رأيناها

(1) تعني المفردة الفرنسيّة sauvage «متوحش» أو «متوحشة»، ولكنّها تشكّل هنا، كما في اسم إحدى الشخصيّتين المحوريّتين في قصّة «صديقين»، اسمَ علم (المترجمة).

وأسرتْ قلوبنا كمثل أحداثٍ سعيدة. يحصل حتّى أن يشرد الفكر صوب بقعةٍ في غابة أو حافّة نهرٍ أو مرجٍ مفروشٍ بالزّهور لمحناه مرّة واحدة ذات نهارٍ فَرِحٍ وبقي في القلب كمشاهد النّساء اللاّتي نلتقيهنّ في أحد الشّوارع ذات صباحٍ ربيعيّ مرتدياتٍ ملابس زاهية وشفّافة، فيتركنَ في الجسد والرّوح رغبةً لم تُشبَع وليس يمكن نسيانها وشعوراً بأنّنا حاذينا السّعادة.

في فيرلونيي، كنتُ أحبّ الرّيف بكلّ ما فيه: الغابات الصّغيرة المتناثرة فيه والأنهار التي تجتازه وتجري في الأرض كعروقٍ تمدّ التّربة بالدّماء. في تلك المياه كنّا نصطاد السّرطان النّهريّ والتّروتة والأنقَليس! هي ذروة السّعادة! وفي بعض الأماكن كان بوسعنا السّباحة، وغالباً ما كنّا نجد طيوراً من نوع الشّنقب بين الأعشاب الطّويلة التي تنبت على حوافّ مجاري المياه الضّيقة تلك.

رشيقاً كمثل ماعز، كنتُ أمشي ناظراً إلى كلبَيَّ يلتهمان العشب أمامي. فيما سرفال على بعد مائتي متر عن يميني يجتاز حقلَ برسيم. التففتُ حول الأدغال التي تشكّل حدود غابة «سوذْر» ولمحتُ كوخاً مُهدَّماً.

وفجأةً، عادت إليّ ذكراه كما كان آخر مرّة رأيته فيها في 1869، نظيفاً، تُعرّش عليه الدّوالي والدّجاج يسرح أمام بابه. فهل من مشهد أكثر إثارةً للشّجن من مشهد بيت ميت، يرتفع هيكله تالفاً

وكئيباً؟

كما تذكّرتُ أنّ امرأةً قدّمت لي فيه كأسَاً ذاتَ يومٍ مُرهِق، وأنّ سرفال روى لي آنذاك حكاية سكّان ذلك البيت. كان الأب صيّاداً مُخالِفاً قتله رجال الشّرطة. والابن الذي رأيتُه في الماضي، كان قد أصبح شابّاً طويل القامة خشناً يُعتَبَر بدوره قاتلَ طرائدَ شرساً. وكان اسم العائلة «آل سوفاج».

أكان هذا اسماً أم لقباً؟

ناديتُ سرفال، فقَدِمَ بخطواته الكبيرة.

وسألته: «ما الذي جرى لهؤلاء النّاس؟».

فروى لي هذه الحكاية.

II

عندما اندلعت الحرب، انخرط فيها الابن سوفاج وكان في الثّالثة والثّلاثين، تاركاً الأمّ وحدها في البيت. ولم يكن حال هذه الأخيرة يدعو كثيراً للرّثاء فقد كان معروفاً أنّها ثريّة.

فبقيَت بمفردها في هذا المنزل المعزول والواقع على تخوم الغابة بعيداً جدّاً عن القرية. ومع ذلك لم تخَفْ، فهي من طينة زوجها وابنها، عجوزٌ فجّة، طويلة القامة ونحيلة لا تضحك كثيراً ومعها لا يمكن المزاح. فالفلاّحات لا يضحكن أبداً. فالضّحك من

اختصاص الرّجال! أمّا هنّ فنفوسهنّ حزينة ومحدودة وحياتهنّ موحشة ليس فيها أيّ انفراج. يتعلّم الفلاّح القليلَ من البهجة الصّاخبة في الحانة، أمّا زوجته فتبقى رصينة وعلى محيّاها ترتسم صرامة دائمة. فعضلات وجهها لم تألف الضّحك.

تابعت الأمّ سوفاج حياتها العاديّة في كوخها الذي سرعان ما غطّته الثّلوج. وكانت تأتي إلى القرية مرّة في الأسبوع لتشتري الخبز والقليل من اللّحم، ثمّ ترجع إلى كوخها. وإذ كان يُحكى عن وجود ذئاب في الأنحاء، كانت تخرج حاملةً البندقيّة على ظهرها، بندقيّة ابنها الصّدئة التي بليَ عقبها من جرّاء احتكاك اليد به. كانت هيئة الأمّ سوفاج تثير الفضول وهي تسير بخطواتٍ بطيئة على الجليد، منحنية قليلاً وفوّهة البندقيّة ترتفع فوق قلنسوتها السّوداء المشدودة بإحكام على رأسها والتي تُخفي شعرها الأبيض الذي لم يره أحدٌ يوماً.

وفي أحد الأيّام وصل البروسيّون. فوُزِّعوا على السّكّان بحسب ثروة كلّ واحد وموارده. وإذ كان ثراء العجوز معروفاً، كان نصيبها أربعة جنود.

كانوا أربعة شبّان بُدَناء، شُقر البشرة واللّحى وزرق العيون، لا زالوا على بدانتهم رغم كلّ التّعب الذي عرفوه حتّى تلك اللّحظة، وكانوا طيّبين رغم وجودهم في بلدٍ مُحتلّ. وإذ لم يكن

في بيت المرأة المسنّة سواهم، أحاطوها بعنايتهم ولم يدّخروا وسعاً ليوفّروا عليها الإجهاد والمشقّات. فكانوا يُشاهَدون وهم يغتسلون حول البئر في الصّباح عراة الصّدور، مبلِّلين بسخاءٍ، في أيّام الثّلج القارس، بشرتَهم البيضاء والورديّة التي تميّز أبناء الشّمال. فيما الأمّ سوفاج تروح وتجيء مُعِدَّةً الحساء. ثمّ كانوا يُشاهَدون وهم ينظّفون المطبخ ويفركون البلاط ويحتطبون ويقشّرون البطاطس ويغسلون الملابس ويقومون بكلّ الأعمال المنزليّة كما لو كانوا أربعة أبناء نجباء يحيطون بوالدتهم.

ولكنّ العجوز لم تكن تكفّ عن التّفكير في ابنها؛ ابنها الطّويل الهزيل المعقوف الأنف ذي العينين البنّيّتين والشّاربين الكثّين اللّذين كانا يقبعان فوق شفته مثلَ كبكبة شعرٍ أسود. وكلّ يوم كانت تسأل كلّ جنديّ من الجنود القاطنين في بيتها: «أتعرف إلى أين اتّجهت فرقة المشاة الثّالثة والعشرون الفرنسيّة؟ إنّ ابني في عدادها».

وكانوا يُجيبون بفرنسيّة مشبعة بلكنتهم الألمانية: «لا، لا نعرف، لا نعرف شيئاً». ولمّا كانوا يفهمون حزنها وقلقها هم الذين تركوا أمّهاتٍ لهم هناك، فقد كانوا يحيطونها بعناية مُضاعَفة. وكانت بدورها تحبّهم كثيراً، أعداءَها الأربعة أولئك. فالفلاّحون لا يعرفون مشاعر الكره الوطنيّة، فهذه لا تملكها

إلاّ الطّبقات العليا. أمّا البسطاء، أولئك الذين يدفعون الثّمن الأغلى لأنّهم فقراء والذين تُنهكهم كلّ كلفةٍ جديدة، أولئك الذين يُقتَلون بأعداد غفيرة والذين يشكّلون طعام المدافع الفعليّ لأنّهم كُثر، أولئك الذين هم أكثر من يُعاني مآسي الحرب الفظيعة لأنّهم الأضعف والأكثر هشاشةً، فإنّهم لا يفهمون حميّة القتال تلك، ولا ذلك الشّرف السّريع الاهتياج وتلك التّدابير السياسيّة المزعومة التي تكفيها ستّة أشهر لتشلّ كيان أمّتين كاملتين، سواء بسواء، الغالبة منهما والمغلوبة.

وعندما كان يؤتى بين الأهالي على ذكر الألمان الذين يعيشون عند السيّدة سوفاج كان يُقال: «ها إنّ أربعةً قد وجدوا لهم مأوىً».

إلاّ أنّه ذات صباح، وفيما كانت العجوز وحدها في البيت، لمحتْ من بعيدٍ في السّهل رجلاً يسير باتّجاه منزلها. وسرعان ما عرفتْه، كان هو ساعي البريد. جاء وسلّمها ورقةً مطويّة. فأخرجت نظّارتها التي تستخدمها للخياطة وقرأت: «السيّدة سوفاج، إنّني أكتب لكِ لأنقل إليكِ خبراً حزيناً. إنّ ابنَكِ فيكتور قد قُتِلَ أمس بقذيفةٍ شطرَته شطرَين. كنتُ قريباً من مكان الحادث، ولأنّنا كنّا أنا وابنك متلازمَين في الفِرقة فقد كان يحدّثني عنكِ ليطلب منّي، إن حصل له مكروه، إبلاغكِ بالأمر

في اليوم ذاته.

«لقد أخذتُ ساعته من جيبه لأحملَها لكِ عندما تنتهي الحرب.

«تحيّاتي القلبيّة.

«سيزير ريفو،

«جنديّ من المرتبة الثّانية في فِرقة المشاة الثّالثة والعشرين».

كانت الرّسالة مؤرّخة قبل ذلك اليوم بثلاثة أسابيع.

لم تذرف العجوز دمعة. بقيت جامدة وقد صعقها الخبر وأصابَها بالذهول حتّى أنّها لم تشعر بالألم فوراً. وكانت تفكّر: «ها إنّ فيكتور قد قُتِل!». ثمّ شيئاً فشيئاً صعدت الدّموع إلى عينيها واجتاح الألم قلبها. وراحت الأفكار تأتيها الواحدة تلو الأخرى، مُريعةً ومُمِضّة. لن تتمكّن من تقبيله بعد اليوم، تقبيل ابنها، ابنها البكر، لن تتمكّن من ذلك بعد اليوم! كانت الشّرطة قد قتلت الأب، والألمان قتلوا الابن... شطرته القذيفة شطرين. بدا لها أنّها ترى الحادث، الحادث المرعب ذاك: الرأس يسقط والعينان مفتوحتان وهو يمضغ طرف شاربه الكثّ كما كان يفعل في ساعات الغضب.

ماذا فعلوا بالجثّة بعد ذلك؟ لو انّهم فقط أعادوا إليها ابنها، كما أعادوا لها زوجها مع الرّصاصة في وسطِ جبينه!

ولكنّها سمعت جلبة أصوات. كانت تلك أصوات الألمان الأربعة وقد عادوا من القرية. خبّأت الرّسالة في جيبها بسرعة واستقبلتهم بهدوء بتعابيرها المعتادة وقد تسنّى لها أن تمسح دموعها جيّداً.

كان الأربعة يضحكون مغتبطين، فقد أحضروا معهم أرنباً كبيرة، مسروقة على الأرجح، وكانوا يُشيرون للعجوز بأنّ الطّعام سيكون لذيذاً.

باشرت على الفور التّحضيرات اللازمة لإعداد الغداء. ولكن لّما حان وقت ذبح الأرنب خانها قلبها، مع أنّ تلك لم تكن أوّل أرنبٍ تذبحها! فأجهز عليها أحد الجنود بلكمة خلف أذنيها. ولّما نفق الحيوان، سلخت جلده عن جسمه الأحمر. ولكنّ رؤية الدّماء التي كانت تغطّي يديها، الدّماء السّاخنة التي كانت تشعر بها تبرد وتتجمّد، جعلتها ترتجف من رأسها حتّى أخمص قدميها. وكانت صورة ابنها المقطوع شطرين لا تفارقها، أحمرَ مثل هذا الحيوان الذي كان ما برحَ ينتفض.

ثمّ جلست إلى المائدة مع الألمان ولكنّها عجزت عن الأكل، ولا حتّى لقمة واحدة. أمّا هم فالتهموا الأرنب دون أن يُعيروها اهتماماً. وكانت هي تنظر إليهم شزراً دون أن تنبس ببنت شفة، وكانت تنضج في رأسها فكرةٌ، وكان وجهها خالياً من أيّة تعابير

فلم يلحظوا شيئاً.

وفجأةً سألتْهم: «نحن نعيش معاً منذ شهر وأنا لا أزال أجهل أسماءكم». ففهموا سؤالها، وإن بصعوبة، وأخبروها بأسمائهم. ولكنّ ذلك لم يكن كافياً لها، فجعلتهم يكتبون أسماءهم على ورقة مع عناوين عائلاتهم. ثمّ وضعت نظّارتيها على أنفها الكبير وتأمّلت هذه الكتابة الغريبة ثمّ طوَت الورقة ودسّتها في جيبها إلى جانب الرّسالة التي تُعلمها بموت ابنها.

ولّما انتهت الوجبة، قالت للرّجال: «سأقوم بشيء من أجلكم».

ثمّ راحت تحمل قشّاً إلى العلّيّة حيث ينامون.

ولّما عبّروا عن استغرابهم قالت لهم إنّهم بفضل ذلك لن يشعروا بالبرد. فراحوا يساعدونها. كانوا يكدّسون حزمات القشّ حتّى بلغت السّقف، فحصلوا على ما يشبه غرفة كبيرة محاطة بأربعة جدرانٍ من القشّ، دافئة وعطرة، سينامون فيها بهناء.

خلال العشاء، استغرب أحدهم بقلقٍ من أنّ الأمّ سوفاج لم تأكل هذه المرّة أيضاً. فقالت إنّها تشكو مغصاً. ثمّ أشعلت ناراً قويّة لتتدفّأ، وصعد الألمان الأربعة إلى غرفتهم بواسطة السّلّم الذي يستخدمونه كلّ ليلة.

وما إن أُغلقت فُتحة العليّة، حتّى أبعدت العجوز السّلّم ثمّ

فتحت بهدوءٍ الباب المؤدّي إلى الخارج وذهبت لتُحضر مزيداً من حزَم القشّ ملأت بها المطبخ. كانت تخرج حافية في الثّلج بهدوء شديد فلا تُسمع لها حركة. ومن حينٍ لآخر كانت تسمع شخير الجنود الأربعة متقطّعاً وعالياً.

ولمّا وجدَت أن كلّ شيء قد بات جاهزاً، رمَت في الموقد حزمة قشّ، ولمّا اشتعلت ألقتها على الحُزَم الأخرى ثمّ خرجت وراحت تنظر.

وفي بضع ثوانٍ التمع وميضٌ حادّ في الكوخ الذي تحوّل بعد ذلك إلى مجْمرةٍ مُرعبة، إلى فرنٍ عظيم مضطرم كان بريقه يتطاير من النّافذة الصّغيرة ويرمي على الجليد شعاعاً ساطعاً.

ثمّ انبعثت من قمّة المنزل صرخةٌ قويّة تبعَتها صيحاتٌ بشريّة، نداءات مُمِضّة ملؤها الفزع والارتياع. وانهار باب العليّة في الدّاخل، فدخلت زوبعة من النّار إليها واخترقت السّقف المصنوع من القشّ وارتفعت إلى السّماء كلَهيبِ مشعَلٍ هائل. واضطرم الكوخ بأكمله.

ولم يعد يُسمع في الدّاخل شيء باستثناء فرقعة الحريق وطقطقة الجدران وسقوط العوارض. وفجأةً انهار السّقف وإذا بهيكل المنزل اللاّهب يرمي في الهواء، وسطَ سحابةٍ من الدّخان، دفقة هائلة من الشّرر.

كان الرّيف الأبيض تُضيئه النّيران فيلتمع كبساطٍ فضيٍّ مخضّبٍ بالحُمرة.

وإذا بناقوسٍ يُقرع في البعيد.

كانت العجوز سوفاج واقفة أمام منزلها المهدّم، متسلّحةً بالبندقيّة، بندقيّة ابنها، خشيةَ أن يتمكّن أحد الرّجال من الفرار.

ولمّا رأت أنّ كلّ شيء قد انتهى ألقَت السّلاح في المجمرة. فدوّى انفجار..

وراح النّاس، من فلاّحين وألمان، يتوافدون.

فوجدوا المرأة جالسة عند جذع شجرة، رضيّةً وهادئة.

فتقدّم منها ضابطٌ ألمانيّ يتكلّم الفرنسيّة كابن البلاد وسألها:

«أين الجنود الذين يقطنون عندكِ؟»

فمدّت ذراعها الضّامرة صوب كومة النّيران الحمراء التي كانت تخبو وأجابت بصوتٍ مرتفع:

«في الدّاخل!»

فهُرع الجميع إليها وسألها الألمانيّ:

«كيف اندلعت النّيران؟»

فنطقت قائلةً:

«أنا التي أشعلتها».

فما كانوا يصدّقونها. وظنّوا أنّ الكارثة أصابتها فجأةً بمسّ من

الجنون. وبما أنّ الجميع كانوا متحلّقين حولها ويستمعون إليها، حكت لهم ما حصل من أوّله إلى آخِره. من وصول الرّسالة حتّى آخر صرخةٍ أطلقها الرّجال المحترقون ومنزلَها. لم تُغفل تفصيلاً ممّا شعرت به وممّا فعلَته.

ولّما أنهَت روايتها، أخرجت من جيبها ورقتين، ولتمييزهما على ضوء التماعات النّيران الأخيرة، سوّت مرّة أخرى نظّارتيها وأرَتْهم واحدة منهما وقالت: «في هذه خبر موت فيكتور!». ثمّ أرَتهم الأخرى وأضافت وهي تومئ برأسها صوب الأنقاض الحمراء: «وفي هذه أسماؤهم لتُبلَّغ عائلاتهم!». قالت هذا وأعطت الورقة بهدوء للضّابط الذي كان يُمسك بها من كتفيها، وتابعت قائلة:

«اكتبوا الأمور كما جرت، وقولوا لأهاليهم إنّني أنا من فعلَ هذا. أنا فيكتوار سيمون، الأمّ سوفاج! لا تنسوا ذلك!».

فوجّه الضّابط صارخاً أوامر بالألمانيّة. فاقتيدت العجوز ورُميَت على جدران بيتها التي كانت ما تزال حارّة. ثمّ اصطفّ اثنا عشر رجلاً بسرعة أمامها على بُعد عشرين متراً. أمّا هي فلم تتحرّك. لقد فهمتْ. وكانت تنتظر.

لعلع أمرٌ بإطلاق النّار، ولحقه فوراً دويّ طويل. ثمّ تبعته طلقة متأخّرة، انطلقت وحدها بعد الأخريات.

لم تقع العجوز. بل انهارت دفعة واحدة كما لو كانوا قد بتروا ساقيها. دنا منها الضابط الألمانيّ؛ كانت شبه مشطورة شطرَين. وفي يدها المتشنّجة كانت تقبض على الرّسالة وقد ضرّجتها الدّماء.

ثمّ أضاف صديقي سرفال:

«لقد هدّم الألمان قصر فيرلونيي الذي كنت أنا أملكه انتقاماً ممّا حصل».

أمّا أنا فكنتُ أفكّر في أمّهات الشبّان الأربعة الشديدي الرقّة الذين احترقوا ههنا، وبالبطولة الفظيعة لتلك الأمّ الأخرى التي أُعدمت لصق هذا الجدار.

ثمّ التقطتُ حجراً صغيراً فحّمته النيران.

3 آذار/مارس 1883

مغامرة فالتر شنافْس

- إلى روبير بانشون

A Robert Pinchon

منذ أن دخل فالتر شنافس إلى فرنسا مع جيش الاحتلال، كان يرى نفسه أتعس الرّجال. كان بديناً، يمشي بمشقّة ويلهث كثيراً وتؤلمه قدماه بشكل مروّع وقد كانتا مسطّحتين وسمينتين جدّاً. أضِفْ أنّه كان مُسالِماً وعطوفاً، غير جسورٍ ولا دمويّ الطّبع، أباً لأربعة أطفال يمحضهم حبّاً جمّاً وزوجاً لشابّة شقراء يشتاق بيأس كلّ مساءٍ إلى حنانها وقبلاتها وعناياتها الصّغيرة. كان يحبّ النّهوض متأخّراً والنّوم في وقتٍ مبكّر، وتذوُّقَ الأطايب بهدوءٍ والشّرب في الحانات. فضلاً عن ذلك، كان يفكّر في أنّ كلّ لطائف الوجود تنتهي بانتهاء الحياة. لذا كان يكنّ كرهاً رهيباً،

كرهاً غريزيّاً ومدعوماً بالحجج في الآن ذاته، للمَدافع والبنادق والمسدّسات والسّيوف، وخصوصاً للحِراب، إذ كان يشعر بأنّه عاجز عن استخدام هذا السّلاح الخاطف بما يكفي من السّرعة والحيويّة لحماية بطنه الكبير.

وعندما كان يفترش الأرض مع حلول اللّيل، متدثّراً بمعطفه إلى جانب رفاقه الذين يشخرون، كان يفكّر حتّى وقتٍ متأخّر في عائلته التي تركها هناك وبالمخاطر المزروعة في طريقه. «ماذا سيحلّ بأطفاله إن مات؟ مَن سيتكفّل بغذائهم وتربيتهم؟ هم ما كانوا آنئذٍ أثرياء رغم ما استدانه قبل رحيله ليترك لهم بعض المال». وكان فالتر شنافس يبكي أحياناً.

ولمّا بدأت المعارك، كان يشعر بوهنٍ كبيرٍ في ساقيه بحيث كان يمكن أن يترك نفسه يسقط أرضاً لولا أنّه فكّر أنّ الجيش بكامله سيعبر والحال هذه فوق جسمه. وكان بدنه يقشعرّ لصفير الطّلقات الناريّة.

هكذا كان يعيش منذ شهور في الفزع والقلق.

كانت فرقة الجيش التي ينضوي تحت لوائها تتقدّم صوب النّورماندي. وذات يومٍ أُرسِلَ في مهمّة استطلاعيّة مع مجموعة صغيرة كان عليها فحسب استجلاء جزء من المنطقة ثمّ العودة. كان كلّ شيء في الرّيف يبدو هادئاً، ولم يكن هناك ما يُشير إلى أنّ

ثمّة مقاومةً تتهيّأ.

لذا كان البروسيّون ينزلون بهدوء في وادٍ صغير تقطعه أوهادٌ عميقة عندما أوقفهم إطلاق رصاص كثيف أسقطَ نحو عشرين منهم. ثمّ خرجت فجأةً فرقة من القنّاصة من غابة صغيرة واندفعت إلى الأمام مصوّبةً حراب بنادقها.

في البداية ظلّ فالتر شنافس جامداً؛ كان مصعوقاً وذاهلاً فلم يفكّر حتّى في الهرب. ثمّ استبدّت به رغبة مجنونة في الفرار ولكنّه سرعان ما فكّر أنّه، بالمقارنة مع الفرنسيّين النّحفاء الذين كانوا يصلون متقافزين كقطيعٍ من الماعز، كان هو يتقدّم كسلحفاة. ولمّا لمح على بُعد ستّ خطوات أمامه خندقاً واسعاً مليئاً بالعلّيق الذي تغطّيه أوراق يابسة، قفز إليه دون أن يفكّر حتّى في مقدار عمقه، كما لو كان يقفز من جسرٍ فوق النّهر.

وخاطفاً كالسّهم، اخترق طبقةً سميكة من النّبات المعرّش والعوسج الشّائك الذي مزّق وجهه ويديه، ثمّ وقع بثقلٍ على قفاه على سرير من الحجارة.

وإذ رفع عينيه على الفور، تراءت له السّماء من الفجوة التي أحدثَها. كان بوسع هذه الفجوة الكاشفة أن تفضح أمره، فتجرجرَ بحذرٍ دابّاً على أربع إلى عمق ذلك الأخدود تحت سقف الأغصان المتعانقة، متقدّماً بأسرع ما يمكن ومبتعداً عن موقع

المعركة. ثمّ توقّف وجلس من جديد لابداً كمثل أرنبٍ برّيّ بين الأعشاب اليابسة الطّويلة.

ظلّ بعض الوقت يسمع أصوات الانفجارات والصّراخ والأنين. ثمّ خفّت ضوضاء المعركة حتّى انقطعت، وعاد كلّ شيء ساكناً وهادئاً.

وفجأةً تحرّك شيءٌ قربه. فانتفض مرتعباً. كان ذلك عصفوراً صغيراً حطّ على غصن محرِّكاً الأوراق اليابسة. وطوال ما يقرب من ساعة، ظلّ قلب فالتر شنافس يخفق بضربات قويّة ومتسارعة.

وحلّ المساء غامراً الوادي بالعتمة. فراح الجنديّ يفكّر. ماذا سيفعل؟ ماذا سيحلّ به؟ أيعود إلى فرقته مجدّداً؟... ولكن كيف؟ عن أيّ طريق؟ وإذا فعلَ فسيكون عليه العودة إلى حياة القلق والرّعب والتّعب والألم التي كان يحياها منذ بدء الحرب! لا! لم يكن يملك الشّجاعة لذلك! لن تكون له الطّاقة اللاّزمة لاحتمال ساعات المشي ومواجهة المخاطر في كلّ دقيقة.

ولكن ما العمل؟ لا يمكن أن ينتظر في ذلك الوادي مختبئاً حتّى نهاية المعارك. كلاّ! لو لم يكن مضطرّاً للأكل لما أرعَبه كثيراً هذا الاحتمال، ولكن كان يجب أن يأكل، أن يأكل كلّ يوم.

هكذا وجد نفسه وحيداً ومسلّحاً ومرتدياً بذلته الحربيّة على أرضِ أعداء، بعيداً عمّن يمكن أن يحميه. فكان جسمه يرتجف.

وفجأةً فكّر: «آه لو كنتُ أسيراً!» وارتعش قلبه بالرّغبة، رغبة عنيفة وجيّاشة، في أن يكون أسيراً لدى الفرنسيّين. أسير! هكذا سينجو ويحصل على الغذاء والمأوى ويكون في مأمن من الرّصاص والحِراب، دون أن يوجد ما يخشاه، في سجنٍ موضوعٍ تحت حراسةٍ مشدّدة. أسير! يا له من حلم!

وللحال اتّخذ قراره:

«سأسلّم نفسي للأسْر».

ووقف عازماً على تنفيذ قراره فوراً. ولكنّه ظلّ جامداً في مكانه وقد راحت تساوره أفكار مُكربة ومخاوف جديدة.

أين سيسلّم نفسه للأسر؟ وكيف؟ ومن أيّة جهة؟ وراحت صورٌ فظيعة، صور الموت تتسارع في روحه.

سيتعرّض لمخاطر رهيبة إن هو جازف بالسّير في الرّيف معتمراً قبّعته المدبّبة.

ماذا لو التقى بقرويّين؟ فهؤلاء إن رأوا ألمانيّاً تائهاً، ألمانيّاً أعزل، سيقتلونه ككلب شارد! سيُجهزون عليه بالمذاري والمعاول والمناجل والرّفوش! سيصنعون منه عصيدةً، بضراوة المهزومين السّاخطين.

وماذا لو التقى بقنّاصين؟ إنّ هؤلاء القنّاصين المسعورين لا رادع لهم ولا قانون، ولسوف يُعدمونه رمياً بالرّصاص لهواً

وتجزيةً للوقت وللضّحك منه. وراح يرى نفسه ملتصقاً بجدارٍ في مواجهة فوّهات اثنتي عشرة بندقيّة، فيما يبدو له أنّ الثّقوب السّوداء الصّغيرة تحدّق به.

ماذا لو التقى بالجيش الفرنسي نفسه؟ إنّ جنود الصّفوف الأولى سيخالونه مستطلِعاً، واحداً من أولئك الجنود المتهوّرين والمتذاكين انطلق بمفرده في مهمّة استطلاعيّة، وسيطلقون النّار عليه. وكان يسمع صوت الطّلقات المتباعدة للجنود المتمدّدين في الدّغل، فيما هو يقف وحده وسطَ أحد السّهول، ثمّ يهوي أرضاً، مثقّب الجسم كمثل مِصفاة بالرّصاص الذي كان يحسّ به وهو يخترق جسمه.

فعاود الجلوس يائساً. وكان يبدو له أنْ ما مِن خلاص.

كان ظلام اللّيل قد أرخى سدوله، اللّيل الصامت البهيم. فلم يعد يتحرّك، وكان يرتعد لأدنى ضجيج غريب أو خفيف يحدث في الظّلام. إنّ وقوع أرنبٍ أرضاً إلى جانب جحره كاد أن يجعل فالتر شنافس يلوذ بالفرار. ونعيق البوم كان يمزّق منه الرّوح وينفث فيه مخاوف مفاجئة وموجعة كمثلِ جراح. كان يجحظ عينيه الكبيرتين محاوِلاً أن يرى في العتمة: وفي كلّ لحظة كان يخال أنّ أحداً يمشي بالقرب منه.

بعد ساعاتٍ طويلة ومخاوف فظيعة، لمح السّماء تنجلي عبر

سقف الأغصان الذي كان هو يختبئ تحته. فداخَلَه شعورٌ بالانفراج عظيمٌ، استرخَت له أطرافه وقد ارتاحت فجأةً، وهدأ قلبه وانطبقت عيناه، فغفا.

ولّما استيقظ، بدا له أن الشّمس باتت تتوسّط السّماء أو تكاد، فاستنتج أنّه الظُّهر. لم يكن أيّ ضجيج يعكّر سلام الحقول الكئيب. ثمّ انتبه فالتر شنافس إلى أنّه كان فريسةَ جوعٍ حادّ.

كان، عندما يفكّر في النّقانق، النّقانق اللّذيذة التي يتناولها الجنود، يتثاءب بفمٍ رطب. وكانت معدته تؤلمه.

ثمّ نهض ومشى بضع خطوات، فأحسّ بأنّ ساقيه ضعيفتان فعاود الجلوس ليفكّر. وطوال ساعتين أو ثلاث، راح يزن الحسنات والسّيّئات، مبدّلاً قراره في كلّ لحظة، مُحبَطاً، تعيساً، تتناهبه الحجج الأكثر تعارضاً.

وأخيراً لمعت له فكرة بدت له منطقيّة وعمليّة، ألا وهي أن يترصّد مرور قرويّ وحيد أعزل من أيّ سلاح أو عدّة شغلٍ خطيرة، ثمّ يذهب لملاقاته ويعلن استسلامه له بعدما يكون قد أفهَمه تماماً أنّه بصدد الاستسلام.

فنزع خوذته خشية أن يفضحه رأسها المدبّب وأطلّ برأسه عند حافّة الحفرة متّخذاً احتياطات كبيرة.

لم يكن يبدو في الأفق أيّ كائن أعزل. كان هناك، من جهة

اليمين، قرية صغيرة تبعث إلى السّماء بدخان أسطُحها ومطابخها! ومن جهة اليسار، خلف أشجار إحدى الجادّات، كان يقبع قصرٌ كبير محصّن بأبراج صغيرة.

هكذا بقي منتظراً حتّى المساء وهو يتألّم بشكل فظيع، لا يرى إلاّ أسراب غربان ولا يسمع إلاّ أنّات أحشائه الموجعة.

ومن جديدٍ خيّم عليه الظلام.

فتمدّد في عمق مخبئه ونام نوماً محموماً، مسكوناً بالكوابيس، نومَ رجلٍ يتضوّر جوعاً.

وثانيةً انبلج الفجر فوق رأسه. فعاد إلى الترصّد. ولكنّ الرّيف ظلّ مُقفراً كما في اليوم السّابق. وإذا بخوفٍ جديد يُداخِل قلب فالتر شنافس، الخوف من الموت جوعاً! فكان يرى نفسه في غَورِ جُحره، ممدّداً على ظهره، وعيناه مُغمضتان. وبهائم، بهائم صغيرة من كلّ نوع، تقترب من جثّته وتروح تلتهمها، مهاجمةً إيّاها من كلّ ناحية في الآن ذاته، متسلّلةً تحت ملابسه لتقضم جلده البارد. وغرابٌ كبير ينقر عينيه بمنقاره المسنّن.

فجُنّ وقد تخيّل أنّه سيُغمى عليه من الوهن ولن يتمكّن من المشي. وكان على وشك الانطلاق صوب القرية، مصمّماً على المجازفة بكلّ شيء والتعرّض لأيّ شيء، عندما لمح ثلاثة فلاّحين يتوجّهون صوب الحقول، حاملين معاولهم على الأكتاف، فلاذ

مجدّداً في مخبئه.

ولكن ما إن خيّم الظّلام على السّهل، حتّى خرج بهدوء من الخندق وانطلق محنيّ الظّهر، وَجِلاً، وبقلبٍ خافق، صوب القصر البعيد مؤْثراً الدّخول إليه لا إلى القرية التي كانت تبدو له مُخيفةً كعرينٍ يزدحم بالنّمور.

كانت نوافذ الطّابق السّفليّ تلمتع. أكثر من هذا، كانت إحداها مفتوحة وتنبعث منها رائحة لحمٍ مطبوخ قويّة، رائحةٌ اخترقتْ فجأةً أنفَ فالتر شنافس ووصلت حتّى جوف بطنه وجعلته يتشنّج ويلهث، جاذبةً إيّاه رغماً عنه ومُلقيةً في قلبه بسالةً يائسة.

وفجأةً، ومن دون تفكير، مدّ في إطار النّافذة رأسه، وكان معتمراً خوذته.

كان ثمانية خدم يتعشّون إلى مائدةٍ كبيرة. ولكن فجأةً أوقعت خادمة كأسها وظلّت فاغرةَ الفاه وعيناها ثابتتان. فالتفتت كلّ الأنظار في الاتّجاه نفسه!

وشوهد العدّو!

ربّاه! إنّ البروسيّين يهاجمون القصر!...

فكانت في البداية صرخة، صرخة واحدة هي مجموع ثماني صرخات انطلقت بثماني نغمات مختلفة، صرخة ذعرٍ فظيعٍ،

تبعها نهوض صاخب وتدافع وتزاحم وفرار محموم صوب الباب الخلفيّ. كانت الكراسي تقع والرّجال يصطدمون بالنّساء ويعبرون من فوقهنّ. وفي ثانيتين فرغت القاعة وتُركت هي والمائدة العامرة بالمآكل في مواجهة فالتر شنافس الذّاهل أمام النّافذة.

بعد بضعِ لحظاتٍ من التّردّد، قفز فوق الحائط واقترب من الصّحون. كان جوعه السّاخط يجعله يرتجف مثل شخصٍ محموم: إلاّ أنّ شعوراً بالرّعب كان لا يزال يوقف من اندفاعه ويشلّه. وأصاخ السّمع. كان المنزل بكامله يبدو أنّه يرتجف. كان ثمّة أبوابٌ تُغلق وخطوات تتراكض على أرضيّة الطّابق العلويّ. وكان البروسيّ يُصغي إلى تلك الجلبة المبلبلة مفعماً بالقلق. ثمّ سمع أصواتاً قويّة كما لو أنّ أجساماً تقع على الأرض الرّطبة عند أسفل الجدران، أجساماً بشريّة تقفز من الطّابق الأوّل.

ثمّ توقّفت كلّ حركة وبلبلة وصمتَ القصر الكبير كمثلِ قبر.

فجلس فالتر شنافس أمام صحنٍ لم يُمَسّ وراح يأكل. كان يتناول لُقَماً كبيرة كما لو كان يخشى أن يُقاطعه أحدهم بسرعة وألاّ يتمكّن هو من التهام ما يكفي. كان يرمي بيديه الاثنتين بقطع الطّعام في فمه الفاغر مثل حُفرة. فكانت أكوام الطّعام تسقط الواحدة تلو الأخرى في معدته، نافخةً صدره في طريقها. أحياناً

كان يتوقّف وهو يكاد ينفلق كخرطوم ماءٍ مُترَع. فيتناول إبريق شراب التّفّاح ليُخلي بلعومه كما تُنظَّف قناة مسدودة.

أفرغَ الصّحون كلّها وجميعَ الأطباق والقناني. ثمّ، ثمِلاً من المآكل والمشارب، خبِلاً، مضرَّجاً، يهزّه الفُواق، مشوّشَ الذّهن، دَهينَ الفم، فكّ أزرار بذلته ليتنفّس وقد بات عاجزاً عن القيام بخطوة واحدة. كانت عيناه تُغمَضان وأفكاره يُصيبها الخدر. ألقى برأسه الثّقيل على ذراعيه المكتوفتين على الطّاولة وشيئاً فشيئاً راح يفقد كلّ تصوّرٍ للأشياء والوقائع.

كان الهِلال الأخير يضيء الأفق بشكلٍ مُبهَم فوق أشجار المنتزه. إنّها السّاعة الباردة التي تسبق طلوع النّهار.

كانت ظِلالٌ تتسلّل بين الأدغال، عديدةً وصامتة. وأحياناً، كان شعاع القمر يجعل رؤوس رماحٍ حديديّة تبرق في الظّلام.

والقصر الهادئ كان يرتفع بخياله الأسود العالي. وحدهما نافذتان في الطّابق الأرضيّ كانتا لا تزالان تلتمعان.

وفجأة رعدَ صوتٌ صارخاً:

«إلى الأمام! اهجموا! هيّا يا أبنائي!»

وفي لحظة، اقتحم الأبوابَ والمصاريعَ وزُجاجَ النّوافذ مدٌّ من الرّجال اندفع وحطّم وصدّع كلّ شيء واجتاح المنزل. وفي لحظة واحدة، وثب خمسون جنديّاً مدجّجاً بالسّلاح إلى المطبخ حيث

كان يرقد فالتر شنافس بسلامٍ مصوّبين إلى صدره خمسين بندقيّة مُلقّمة وقلبوه أرضاً ودحرجوه وأمسكوا به وقيّدوه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.

كان هو يلهث من الذّهول، أكثر انصعاقاً من أن يفهم ما يجري، مغلوباً ومُهاناً ومرتعداً من الخوف.

وفجأةً، غرسَ عسكريّ ضخم مُزَركشٌ بالذّهب قدمَه في بطن فالتر شنافس وهو يزعق:

«أنت أسيري! استسلمْ!»

لم يسمع البروسيّ إلاّ كلمة «أسير»، فقال وهو يئنّ: «يا! يا! يا!»[1].

فأنهضَه غالِبوه الذين كانوا يتنفّسون كالحيتان، وأوثقوه إلى كرسيّ وراحوا يتفحّصونه بفُضولٍ شديد. والعديد منهم جلسوا وقد أنهكهم التّعب والانفعال.

أمّا هو فكان يبتسم، كان يبتسم في تلك اللّحظة وقد تأكّد أنّه بات أسيراً أخيراً!

ثمّ دخل ضابط آخر وقال:

«حضرة العقيد، لقد فرّ الأعداء! ويبدو أنّ العديد منهم قد أُصيبوا بجراح. ونحن ما زلنا نسيطر على المكان».

---

(1) «نعمْ!، نعمْ!، نعمْ!»، بالألمانية (المترجمة).

فصاح العسكريّ الضّخم الجثّة، الذي كان يجفّف جبينه:

«انتصَرْنا!»

ثمّ كتب على مفكّرة صغيرة أخرجها من جيبه:

«بعد صراعٍ مُستبسِل، اضطرّ البروسيّون إلى التّراجع حاملين معهم قَتلاهم وجَرحاهم الذين يُقدَّر عددهم بخمسين رجلاً باتوا خارج القدرة على المحاربة. وقد أسرْنا العديد منهم».

ثمّ تابع الضابط الشّاب:

«أيّة ترتيباتٍ أتّخذ الآن يا سيّدي العقيد؟»

فأجاب هذا الأخير:

«سوف ننسحب لنتفادى هجوماً بالمدفعيّات والقوّات العُليا.

وأصدرَ الأمرَ بالانسحاب.

فاصطفّ الجنود مجدّداً في الظّلمة عند أسوار القصر وانطلقوا وهم يُحيطون من كلّ صوب بفالتر شنافس المُقيَّد فيما يُمسك به ستّة مُحاربين شاهرين مسدّساتهم.

وأُرسِلَ مُستطلِعون لاستيضاح الطّريق. وكانت الفرقة تتقدّم بحذر، وتتوقّف من حينٍ لآخَر.

ومع طلوع النّهار، وصلوا إلى بلدة «لا روش-وازيل» التي قام حرسها الوطنيّ بهذا الإنجاز الحربيّ.

كان الأهالي القلقون والهائجون ينتظرون. وعندما لمحوا

خوذة الأسير حدثت جَلَبة عظيمة. كانت النّساء يرفعن أذرعتهنّ والعجائز يبكين ورمى شيخٌ عكّازه على البروسيّ وأصاب أنف أحد الحرّاس.

كان العقيد يصيح:

«احرصوا على سلامة الأسير!»

وأخيراً وصلوا إلى دار البلديّة. وهناك فُتح السّجن ورُميَ فيه فالتر شنافس بعدما فُكَّت قيوده.

وتكلّف مائتا رجل مسلّح بحراسة المبنى.

عندئذٍ، راح البروسيّ الطّائر من الفرح يرقص رغم عوارض عسر الهضم التي بدأت منذ بعض الوقت تعذّبه. جعلَ يرقص بجنون وهو يرفع يديه وساقيه، يرقص مُطلقاً صرخاتٍ حادّةً وظلّ كذلك حتّى وقع مُنهَكاً أسفلَ أحد الحيطان.

لقد أصبح أسيراً! لقد نجا!

وهكذا استُردّ قصر شامبينييه من العدوّ بعد ستّ ساعات فقط من الاحتلال.

أمّا الضّابط راتييه، وهو في الأصل بائع أقمشة، الذي أنجز هذه المهمّة على رأس حرس لا روش-وازيل الوطنيّ فعُلّق على صدره وسام.

11 نيسان/أبريل 1883

مُصلِحة الكراسي

– إلى ليون هينيك

A Léon Hennique

حدث ذلك في نهاية عشاء افتتاح موسم الصّيد في أراضي المركيز دو برتران. كان أحد عشر صيّاداً وثماني شابّات وطبيب البلاد جالسين إلى المائدة الكبيرة المُضاءة والعامرة بالفاكهة والزّهور.

ووصل الحديث إلى موضوع الحبّ، فانطلق نقاشٌ محموم، ذلك النّقاش الأزليّ، لمعرفة ما إذا كان بوسع المرء أن يحبّ مرّة واحدة أو أكثر. فجيء على ذكر أمثلة عن أناسٍ لم يعرفوا إلاّ حبّاً جدّيّاً واحداً في حياتهم. وذُكرت أمثلة أخرى عن أشخاصٍ أحبّوا أكثر من مرّة حبّاً عميقاً. فكان الرّجال في الأعمّ الغالب يدّعون أنّ

العشق هو كالأمراض يمكن أن يصيب المرء ذاته عدّة مرّاتٍ، وأن ينقضّ عليه حتّى يرديه صريعاً إذا ما اعترضته عوائق حالت بينه وبين المعشوق. ورغم أنّ وجهة النّظر هذه لم تكن قابلة للنّقاش، فإنّ النّساء، اللّواتي يستندن في تفكيرهنّ إلى الأشعار أكثر ممّا إلى المعاينة، رحنَ يؤكّدن أنّ الحبّ، الحبّ الحقيقيّ، الحبّ الكبير لا يمكن أن يُصيب الإنسان إلاّ مرّة واحدة، وأنّ هذا الحبّ شبيه بالصّاعقة إذا ما أصاب قلباً تركَه في حالٍ من الخواء والخراب والاحتراق بحيث يستحيل أن يتمكّن أيّ شعورٍ قويّ آخر ولا أيّ حُلمٍ من أن يُزهر فيه من جديد.

وكان الماركيز، وقد عرف الحبّ كثيراً في حياته، يعارض هذا الاعتقاد بقوّة:

- أؤكّد لكم أنّه يمكن للمرء أن يحبّ أكثر من مرّة بكلّ قواه وكلّ قلبه. أنتم تذكرون أشخاصاً انتحروا من الحبّ كدليل على استحالة عيش حالةِ عشقٍ ثانية. وأنا أجيبكم بأنّ هؤلاء لو لم يرتكبوا حماقة الانتحار هذه التي حرمتْهم من كلّ فرصة للوقوع مجدّداً في الحبّ، لكانوا برئوا وعاودوا الوقوع في الحبّ دائماً وأبداً حتّى تحين ساعتهم. فالعُشّاق مثلهم كمثل مُدمني الخمر: من شربَ مرّةً شرب دوماً، ومن أحبّ مرّةً أحبَّ مراراً. إنها مسألة طبْع.

فحكّموا الطّبيب، ذلك الطّبيب الباريسيّ المسنّ الذي كان قد هاجر إلى الرّيف، ورجَوه إبداء رأيه في المسألة.

ولكن لم يكن لديه رأي في ذلك، فقال:

- كما قال الماركيز، إنّها مسألة طبْع. أمّا أنا فقد عرفتُ حكاية عشقٍ دام خمساً وخمسين سنة بلا هوادة ولم ينتهِ إلاّ بالموت.

فهتفت الماركيزة:

- ما أجمل هذا! وكم هو محظوظٌ مَن يُحَبّ على هذه الشّاكلة! ويا للسعادة الكامنة في أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة مغموراً بهذه العاطفة الرّاسخة العنيفة! كم كان سعيداً وشاكراً للحياة الرّجلُ الذي تلقّى حُبّاً كهذا!

فابتسم الطّبيب:

- حقّاً يا سيّدتي، أنتِ لستِ مُخطئة في هذه النّقطة، فالمحبوب كان رجلاً بالفعل. وأنتِ تعرفينه، إنّه السيّد شوكيه صيدليّ البلدة. أمّا المرأة فتعرفينها أيضاً، إنّها مُصلِحة الكراسي العجوز التي كانت تأتي كلّ سنة إلى القصر. سأشرح لكِ بشكلٍ أوضح.

فخمدت حماسة النّساء فوراً وكانت وجوههنّ المتقزّزة تقول: «سحْقاً!»، كما لو أنّ الحبّ يجب ألاّ يُصيب إلاّ كائناتٍ مُرهَفة وأنيقة، هي وحدها أهل لإثارة اهتمام أشخاصٍ رفيعين.

فتابع الطّبيب:

- منذ ثلاثة شهور، استُدعيتُ عند عجوزٍ على فراش الموت. كانت قد وصلت في اليوم السّابق في العربة التي تتّخذها كذلك منزلاً لها، تجرّها الفرس البليدة التي رأيتموها ويرافقها كلبان أسودان كبيران، هما رفيقاها وحارساها. كان الكاهن قد وصل، فاتّخذتْنا أنا وهو منفّذين لوصيّتها. ولكي تُفهمنا رغباتها الأخيرة، روت لنا قصّة حياتها. قصّة لا أعرف لها مثيلاً في الفرادة والألم.

كان والداها مُصلِحَي كراسي. ولم تملك يوماً منزلاً ثابتاً.

في صغرها، كانت تهيم على وجهها رثّة الملابس، قذرة ووسخة. كانوا هي وأبَواها يتوقّفون على امتداد الخنادق عند مداخل القُرى، فيَحلّون العربة ويتركون الحصان يرعى والكلب يغفو وخطمه على قائمتيه. وتروح الصّغيرة تتمرّغ في العشب بينما الأب والأمّ يرتقان، في فيء أشجار الطّريق، كلّ الكراسي العتيقة في المنطقة. وفي ذلك المنزل المتجوّل، لم يكن أحد يتكلّم. فبعد الكلمات القليلة اللاّزمة لاختيار مَن مِنهما سيدور على البيوت مطلِقاً ذلك النّداء المعروف: «مصلِحووووو كَراسي!»، يبدآن بفتل أعواد القشّ متواجهَين أو جنباً إلى جنب. وعندما كانت الطّفلة تبتعد أكثر ممّا يجب أو تحاول التّواصل مع أحد صبْية القرية كان الأب يُناديها بصوته الغاضب: «هلاّ عدتِ إلى هنا أيّتها الفاسقة!». كانت تلك هي كلمات الحنان الوحيدة التي

كانت تسمعها.

وعندما كبرتْ، صارا يُرسلانها لجمع مقاعد الكراسي التّالفة. ومن ساحةٍ لأخرى بدأت في نسج علاقات بسيطة مع الصّبية. ولكن هذه المرّة، كان أهالي هؤلاء الأصدقاء الجدد هم الذين يستدعون أبناءهم بخشونة: «هلاّ عدتَ إلى هنا أيّها السّوقيّ! ويلكَ إن رأيتك تتحدّث مع المتشرّدين!...»

وغالباً ما كان الصّبْية الصّغار يرمونها بالحجارة.

ولّما تصدّقت عليها نسوة ببضعة فلوسٍ، احتفظتْ بها بعناية.

وذات يوم، وكانت في الحادية عشرة من العمر، كانت مارّةً في هذه المنطقة فالتقت خلف المقبرة بالصّغير شوكيه الذي كان يبكي لأنّ رفيقاً له سرقَ منه نصفَ فلس. فأربكتها دموع ذلك الريفيّ الصّغير، وكان أحد أولئك الصّغار الذين كان عقلها الهزيل، عقل فتاةٍ محرومة، يتخيّلهم دائمي الفرح والسّرور. فاقتربت منه، ولّما عرفت سبب حزنه، ألقت بين يديه بكلّ مدّخراتها، أي سبعة فلوس، أخذها هو طبعاً، ماسحاً دموعه. فطارت من الفرح وتجرّأت وقبّلتْه. أمّا هو فكان منشغلاً بتأمّل نقوده فلم يمانع. ولّما رأت أنّه لم يصدّها أو يضربها، قبّلته مرّة أخرى. عانقته بكلّ ذراعيها وبكلّ قلبها. ثمّ فرّت هاربةً.

ما الذي جرى في رأس تلك البائسة؟ هل تعلّقت بذلك الولد

لأنّها بذلت له ثروتها، هي المتشرّدة، أم لأنّها منحته أوّل قبلةٍ حنون؟ إنّ اللّغز يبقى هو نفسه، للصّغار كما للكبار.

وطوال شهور، ظلّت تحلم بزاوية المقبرة تلك وبذلك الصبيّ. وعلى أمل رؤيته مجدّداً، راحت تسرق من مالِ أبوَيها، مختلسةً فلساً من هنا وفلساً من هناك، من أجرة تصليح كرسيّ أو من ثمن المشتريات التي كانت موكّلة بها.

ولّما عادت إلى المنطقة، كان في حوزتها فرنكان اثنان، ولكن كلّ ما حظيت به هو أن تلمح الصيدليّ الصّغير، شديد النّظافة، خلف زجاج دكّانة أبيه، بين إنبيق أحمر ودودة شريطيّة.

فما كان منها إلاّ أن ازدادت تعلّقاً به، وقد فتنتْها وأشجتها وخطفتها روعة المياه الملوّنة تلك وتألّق البلّور اللاّمع ذاك.

فاحتفظت في دخيلائها بذكراه التي لا تُمحى، ولّما التقت به في العام التّالي خلف المدرسة، وكان يلعب ورفاقه بالكريات الزّجاجيّة، ارتمت عليه واحتضنته بين ذراعيها وقبّلته بعنفٍ شديد حتّى راح يصرخ من الخوف. ولكي تهدّئ من روعه أعطته كلّ ما كان معها من نقود: ثلاثة فرنكات وعشرين سنْتاً: كنزٌ حقيقيّ راح هو ينظر إليه بعينين ذاهلتين.

فأخذ المال وتركها تداعبه بقدر ما تشاء.

وطوال أربع سنوات، استمرّت تُلقي بين يديه كلّ مدّخراتها

التي كان يأخذها بإدراك تامّ مقابل قُبلات مرتضاة. مرّةً تلقي ثلاثين فلساً ومرّةً فرنكين ومرّةً اثني عشر فلساً (يومها بكت من الألم والعار، ولكنّ السّنة كانت عجفاء)، وآخِر مرّة خمسة فرنكات على شكل قطعةٍ نقديّة مستديرة جعلته يطلق ضحكاً مسروراً.

ولم تعد تفكّر إلاّ فيه. وكان هو ينتظر رجوعها بشيءٍ من اللهفة، وعندما يراها كان يركض لملاقاتها، ممّا كان يجعل قلب الفتاة الصّغيرة يقفز فرحاً.

ثمّ اختفى. كان قد أُرسل إلى المدرسة الثّانويّة. عرفتْ بذلك بعدما استعلمت ببراعة. وبدهاء شديد حاولت تغيير مسار أبوَيها ليمرّا في منطقتنا خلال العطلة. وقد نجحت في ذلك، ولكن بعد سنةٍ من الحيَل المتواصلة. وهكذا كان قد مضى على عدم رؤيتها إيّاه سنتَان. وكادت ألاّ تعرفه، فقد تبدّل كثيراً وكبرَ وصار أكثر وسامةً ومهابةً في بذلته ذات الأزرار الذّهبيّة. أمّا هو فتظاهر بأنّه لم يرها ومرّ بجانبها بعُجبٍ وغطرسة.

فظلّت تبكي طوال يومين. ومنذ تلك اللّحظة لم تكفّ عن التّألّم.

كانت تعود في كلّ سنة، فتمرّ أمامه دون أن تجرؤ على إلقاء التّحيّة عليه ودون أن يتنازل هو فيجود عليها ولو بالتفاتة. كانت

تحبّه إلى حدّ الولَه. ولقد قالت لي: «إنّه الرّجل الوحيد الذي رأيته في العالم، يا سيّدي الطّبيب. ولا أعرف حتّى إذا كان ثمّة رجال سواه». ثمّ توفّي والداها. فورثت عنهما مهنتهما، ولكن بدل الكلب اتّخذت اثنين، كلبين مُرعِبين لم يكن ليجرؤ على مجابهتهما أحد.

وذات يوم، ولمّا عادت إلى هذه القرية حيث تركتْ قلبها، لمحت شابّةً تخرج من دكّان شوكيه متأبّطة ذراع حبيبها هي. كانت تلك هي زوجته. كان متزوّجاً.

في مساء اليوم ذاته، رمت بنفسها في بركة ساحة البلديّة. فأنقذها سكّير متخلّف عقليّاً وحملها إلى الصّيدليّة. فنزل شوكيه الابن بالمِبذَل لمعالجتها. ومن دون أن يبدو عليه أنّه يعرفها، نزع عنها ملابسها ونشّفها ثمّ قال لها بصوتٍ قاسٍ: «يا للكِ من مجنونة! لا يجب أن يكون الواحد غبيّاً هكذا!».

كان ذلك كافياً لتشفى. فقد تحدّث إليها! وكانت سعيدةً لوقت طويل.

ولم يشأ أن يأخذ أيّ أجرٍ مقابل اهتمامه بها، رغم أنّها أصرّت كثيراً لتكافئه.

وهكذا مرّت كلّ حياتها. كانت تُصلح الكراسي وهي تفكّر في شوكيه. وكلّ سنة، كانت تلمحه خلف زجاج صيدليّته.

واعتادت أن تشتري من عنده مخزونها من أدوية كثيرة. هكذا كانت تراه عن قرب وتتكلّم معه وتستمرّ بإعطائه المال.

وكما قلتُ لكم في البداية، توفّيتْ هذا الرّبيع. وبعدما روت لي هذه القصّة الحزينة بكاملها، رجَتني أن أسلّم إلى ذلك الذي واظبت هي على حبّه جنى عمرها كلّه، لأنّها كانت تقول إنّها لم تعمل إلاّ من أجله، حتّى أنّها كانت تحرم نفسها من الطّعام من أجل أن تدّخر وتكون واثقة من أنّه سيفكّر فيها على الأقلّ مرّة واحدة، عندما تموت.

فسلّمتني ألفين وثلاثمائة وسبعة وعشرين فرنكاً. وعندما لفظت أنفاسها الأخيرة، تركتُ للكاهن الفرنكات السّبعة والعشرين من أجل الدّفن، وأخذتُ معي الباقي.

وفي اليوم التّالي، قصدتُ منزل شوكيه. كان هو وزوجته يجلسان متقابلين على وشك الانتهاء من تناول الغداء، سمينين وأحمرين وتفوح منهما رائحة المواد الطبيّة، متعجرفَين ورضيّين.

دعوَاني للجلوس وقدّما لي شراباً فقبلتُه. وبدأتُ حديثي بصوتٍ ملؤه التّأثّر وكلّي ثقة من أنّهما سيبكيان.

ولكن ما إن فهم شوكيه أنّ تلك المتشرّدة المتسكّعة مُصلحة الكراسي كانت تحبّه حتّى وثب ساخطاً، كما لو أنّها قد سرقت سمعتَه، حظوته كشخصٍ نزيه، شرفَه الرّفيع، شيئاً ما رهيفاً أغلى

من حياته.

أمّا زوجته المغتاظة بقدره فكانت تكرّر: «هذه المتسوّلة! هذه المتسوّلة! هذه المتسوّلة!». كانت عاجزةً عن إيجاد مفردة أخرى.

وكان هو قد وقف وراح يمشي خلف الطّاولة بخطوات سريعة وقلنسوته اليونانيّة منقلبة على أذنه. وكان يردّد متلعثماً: «أتفهم هذا يا حضرة الطّبيب؟ إنّها لأمور فظيعة بالنّسبة لرجل! ما العمل؟ آه لو عرفتُ بالأمر وهي لا تزال على قيد الحياة، لكنت جعلتُ الشّرطة تُلقي القبض عليها وترمي بها في السّجن، ولما كانت خرجت منه أبداً، أؤكّد لك!».

بقيتُ مذهولاً من نتيجة مسعاي التّقيّ. لم أكن أعرف ماذا أقول أو أفعل. ولكن كان عليّ إتمام مهمّتي، فاستأنفتُ الحديث: «لقد أوكلَت إليّ بمهمّة تسليمك كلّ مدّخراتها وهي تبلغ ألفين وثلاثمائة فرنك. ولكن بما أنّ ما أعلمتُك به للتوّ يبدو بغيضاً جدّاً بالنّسبة إليك، فمن الأفضل ربّما إعطاء هذه الأموال للفقراء».

طفقَ الرّجل وزوجته ينظران إليّ مصعوقَين.

وأخرجتُ المال من جيبي، مالاً بائساً من كلّ البلدان والعملات يختلط فيه الذّهب بالفلوس، ثمّ سألتهما: «ما قراركما؟».

فتكلّمَت السيّدة شوكيه أوّلاً: «إن كانت هذه أمنية تلك المرأة

الأخيرة... فأظنّ أنّ من الصّعب علينا أن نرفضها».

وأكمل زوجها محرَجاً بعض الشّيء: «يمكننا أن نشتري بهذه الأموال شيئاً للأولاد».

فقلتُ بنبرةٍ جافّة: «كما تشاءان!».

وتابع هو: «هاتِها، ما دامت قد كلّفَتك بذلك. سنجد طريقةً لاستخدامها في عملٍ خيّر».

فأودعتُه الأموال وألقيتُ التّحيّة وخرجت.

وفي اليوم التّالي، جاء شوكيه لرؤيتي وقال فجأة:

- ولكنّ تلك... تلك المرأة تركت عربتها هنا. ما ستفعل بها؟

- لا شيء. خذها إن أردت.

- ممتاز. هذا يناسبني. سأصنع منها كوخاً في بستاني.

قال ذلك وخرج، فناديتُه: «لقد تركَت كذلك حصانها العجوز وكلبيها. أتريدهما؟». فتوقّف متفاجئاً وأجاب: «كلاّ بطبيعة الحال! ما تريدني أن أفعل بها؟ تصرّف بها كما تشاء». وكان يضحك. ثمّ مدّ لي يده للمصافحة. فلم يكن لديّ الخيار. إذ لا يمكن لطبيب وصيدليّ يعيشان في منطقة واحدة أن يكونا على خصومة. فأبقيتُ الكلبين عندي. والكاهن الذي كان يملك باحة واسعة، أخذَ الحصان. أمّا العربة، فصار شوكيه يستخدمها كوخاً. وبالأموال اشترى خمس أسهم في شركة سكك الحديد.

هذا هو الحبّ العميق الوحيد الذي التقيتُ به في حياتي».

وسكتَ الطّبيب.

فهمسَت الماركيزة وكانت عيناها مغرورقتين بالدّموع:

- حقّاً، وحدهنّ النّساء يعرفن أن يحببن!»

17 أيلول/سبتمبر 1882

كلوشيت

لَكَم هي غريبةٌ تلك الذّكريات القديمة التي تسكننا ولا يسعنا الفكاك منها!

والذّكرى التي سأرويها هي من القدم، بحيث أعجز عن فهمِ كيف بقيت حيّةً وراسخةً في ذهني إلى هذا الحدّ. لقد رأيتُ منذ ذلك الحين الكثير من الأمور المحزنة والمؤثّرة والفظيعة، لذا يفاجئني ألاّ يمرّ يوم، يوم واحد، من دون أن يرتسم أمام عينيّ وجه الأمّ كلوشيت، كما عرفتُها في الماضي البعيد لمّا كان لي عشر سنوات من العمر أو اثنتا عشرة.

كانت كلوشيت خيّاطةً عجوزاً تأتي مرّة في الأسبوع، كلّ

ثلاثاء، لرتق الملابس عند أبوَيّ. وكان والداي يعيشان في أحد هذه المنازل الرّيفيّة التي تُسمّى قصوراً، وما هي إلاّ بيوت قديمة مدبّبة السّطوح تتبع لها أربع مزارع أو خمس، محيطة بها.

وأمّا القرية، وهي قرية كبيرة، لا بل بلدة، فكانت تظهر، على بُعد بضع مئات من الأمتار، متجمّعة حول الكنيسة، كنيسة من القرميد الأحمر الذي اسودّ مع الزّمن.

وعليه، ففي كلّ ثلاثاء، كانت الأمّ كلوشيت تصل بين السّاعة السّادسة والنّصف والسّابعة صباحاً وتصعد فوراً إلى غرفة البياضات لتبدأ العمل.

كانت امرأة طويلة القامة، هزيلة وملتحية، أو بالأحرى مُشعِرة، إذ كان الشّعر يغطّي وجهها بكامله. لحية عجيبة نبتَت على شكل باقاتٍ مُذهلة وخُصَلٍ جعداء كانت تبدو كما لو أنّ مجنوناً زرَعها على عرض هذا الوجه الكبير، وجه دركيّ في ثياب امرأة. كان لديها شعرٌ على أنفها وتحته، وحول عينيها وعلى ذقنها ووجنتيها. أمّا حاجباها فكانا سميكين وعريضين بشكلٍ مدهش، رماديّين وكثّين ومنتفشين كما لو أنّهما شارِبان وُضعا هنا عن طريق الخطأ.

وكانت تعرج، لا كما يفعل العُرج العاديّون بل مثل سفينةٍ راسية. فعندما كانت تُلقي بجسمها الطّويل والعظميّ والمائل

على ساقِها، كانت تبدو كما لو أنّها تتهيّأ لاعتلاءِ موجة ضخمة، ثمّ فجأةً تغوص كما لو كانت تسقط في هاوية، وتنغرز في الأرض. كانت تتأرجح وهي تمشي، حتّى لَتذكّر مشيتُها بعاصفة. أمّا رأسِها المغطّى دوماً بقلنسوة بيضاء ضخمة تتطاير شرائطها على ظهرها، فكان يبدو عند كلّ حركة أنّه يخترق الأفق من الشّمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشّمال.

كنتُ متعلّقاً بالأمّ كلوشيت. فحالما أصحو، كنتُ أصعد إلى غرفة البياضات حيث أجدها جالسةً تخيط وتحت قدميها سخّانة صغيرة. وما إن أصل حتّى ترغمني على أخذ هذه السّخانة والجلوس إزاءها حتّى لا أصاب بالزّكام في تلك الغرفة الواسعة والباردة القائمة تحت السّطح.

كانت تقول لي: «إنّ الزّكام يستنزف دم الحنجرة».

وكانت تروي لي حكايات وهي ترتق الملابس بأصابعها الطّويلة الرّشيقة المعقوفة. أمّا عيناها اللّتين أضعفهما العمر، فكانتا تبدوان لي من وراء نظّارتيها المكبِّرتين السّميكتين ضخمتين وعميقتين بشكلٍ غريب ومُضاعَفتين.

وحسبَ ما أتذكّر من الأشياء التي كانت تقولها لي والتي كان يخفق لها قلب الولد الذي كنتُه، كان تتمتّع بشهامة امرأةٍ مسكينة. فكانت ترى الأمور بالجملة وببساطة. كانت تروي لي أحداث

البلدة: حكاية بقرة هربت من زريبتها وعُثِرَ عليها ذات صباح أمام طاحونة «بروسبير ماليه» تنظر إلى دوران الأجنحة الخشبيّة. أو حكاية بيضة الدّجاج التي اكتُشفت في جرس الكنيسة ولم يتمكّن أحد من أن يفهم كيف يمكن لدجاجةٍ أن تأتي وتَبيض في ذلك المكان. أو حكاية كلب جان-جان بيلا الذي ذهب ليستعيد على بُعد عشرة فراسخ من القرية سروالَ سيّده الذي كان قد سرقه أحد المارّة بينما كان منشوراً أمام باب المنزل لينشف بعد جولة ركضٍ قام بها تحت المطر. كانت تروي لي هذه المغامرات السّاذجة بطريقةٍ تجعلها تتّخذ في ذهني جسامة المآسي التي لا تُنسى، والقصائد العظيمة والمُلغزة. حتّى أنّ الحكايات اللاّمعة التي ألّفها شعراء والتي كانت ترويها لي أمّي مساءً لم يكن لها هذه النّكهة وهذه العظمة وهذه القوّة التي كانت لحكايات الفلاّحة.

الحال، ذات يوم ثلاثاء، وكنتُ قد أمضيتُ الصّباح بكامله أستمع إلى الأمّ كلوشيت، أردتُ الصّعود قربها خلال النّهار بعدما ذهبتُ لقطف اللّوز مع الخادم في غابة «آليه» الواقعة خلف مزرعة «نواربريه». لا زلتُ أذكر كلّ ذلك بوضوح كما لو أنّه حدث بالأمس.

وما إن فتحتُ باب غرفة البياضات حتّى لمحتُ الخيّاطة العجوز منطرحة أرضاً إلى جانب كرسيّها، وجهها باتّجاه الأرض

وذراعاها ممدودتان، وهي لا تزال تمسك بإبرتها بيدٍ وباليد الأخرى أحد قمصاني. وكانت إحدى ساقيها، الطويلة على الأرجح، ممتدّة تحت الكرسي بجوربها الأزرق، أمّا نظّارتاها فكانتا تلمعان أسفل الجدار وقد تدحرجتا بعيداً عنها.

فهربتُ وأنا أصرخ. فهُرِع الجميع وعرفتُ بعد بضع دقائق أنّ الأمّ كلوشيت قد ماتت.

لا يسعني وصف الشّعور العميق والمؤلم والفظيع الذي قبض على قلب الطّفل الذي كنتُه. نزلتُ بهدوء إلى غرفة الاستقبال واختبأتُ في زاوية مُعتمة. ركعتُ في جوف كنَبة ضخمة وقديمة ورُحتُ أبكي. ولا بدّ أنّني بقيتُ في ذلك المكان حتّى وقتٍ طويل، إذ كان ظلام اللّيل قد أرخى سدوله.

وفجأةً دخل أحدهم إلى الغرفة حاملاً قنديلاً، ولكنّه لم يرَني. وسمعتُ والديَّ يتحدّثان مع الطّبيب الذي عرفتُه من صوته.

كانا قد أرسلا بطلبه بسرعة وكان يشرح لهما أسباب الحادث التي لم أفهم منها شيئاً. ثمّ جلس وقبِلَ كأس المشروب التي قُدّمت له مع قطعة بسكويت.

وظلّ يتكلّم، وما قاله آنذاك بقي وسيبقى محفوراً في روحي حتّى مماتي! حتّى أنّني قادرٌ على استعادة العبارات التي استخدمَها استعادةً شبْه حرْفيّة.

«آه! يا للمرأة المسكينة!، قال لنا، كانت أوّل زبائني هنا. فقد كسرت ساقها يوم وصولي وما كدتُ أغسلُ يديّ بعد نزولي من العربة حتّى جاء من يطلبني بسرعة لحادثٍ خطير، خطير جدّاً.

كانت في السّابعة عشرة، وكانت شابّةً جميلةً، لا بل بالغة الجمال. من كان ليصدّق! أمّا حكايتها فلم أروِها قطّ، ولا أحد سوانا، أنا وشخص آخر لم يعد يعيش في المنطقة، عرفها يوماً. ولكن بما أنّها ميتة الآن فبوسعي أن أكون أقلّ كتماناً.

في تلك الأيّام، استقرّ في البلدة مساعدُ مدرّسٍ كان في مقتبل الشباب. كان وسيم الوجه وله قامة نائب ضابط. وكانت كلّ الفتيات مُعجَباتٍ به فيما هو يتصنّع ازدراءهنّ، وكان فضلاً عن ذلك يشعر بخوف عظيم من السيّد غرابو، معلّم المدرسة المسؤول عنه والذي كان متقلّب الطّباع.

ومنذ ذلك الزّمن كان غرابو يشغّل عنده بمثابة خيّاطةٍ الجميلةَ هورتانس[1]، تلك التي توفّيت قبل قليل عندكم والتي ستُسمّى فيما بعد كلوشيت بعد الحادثة التي ستتعرّض لها. مساعد المدرّس

---

(1) الاسم «هورتانس» Hortense مشتقّ من اسم زهرة الأرطنسيّة Hortensia المعروفة، و«كلوشيت» Clochette مصغّر Cloche، وتعني «جرَس»، فاسم الفتاة الجديد هو إذن «جرس صغير» أو «جُرَيس». وفي تحوّل الاسم هذا دلالة على تحوّل وضعها الحياتيّ كلّه (المترجمة).

لفتت نظره تلك الفتاة الجميلة التي شعرت على الأرجح بالإطراء لأنّ ذلك الجذّاب المتمنّع وقع اختياره عليها. فأحبّته وفاز منها بموعد غراميّ أوّل في عليّة المدرسة عند هبوط اللّيل بعد نهارِ خياطة.

فتظاهرت بالعودة إلى منزلها، ولكن بدل أن تنزل الدّرج لدى خروجها من عند آل غرابو صعدته وذهبت لتختبئ بين حزَم الكلأ اليابس وتنتظر عاشقها. وسرعان ما التحق بها وما كاد يبدأ بمغازلتها حتّى فُتح باب العلية ودخل معلّم المدرسة وسأل:

- ماذا تفعل هنا يا سيجيبير؟

ولمّا كان المدرّس الشّاب قد شعر بأنّ أمره سيُفتضح، أصابه الهلع وأجاب بغباء:

- صعدتُ لأرتاح قليلاً على حزَم الكلأ يا سيّد غرابو.

كانت العليّة شديدة الكبر والاتّساع ومعتمة بالكامل وكان سيجيبير يدفع الفتاة الفزعة إلى الخلف مكرّراً: «إذهبي إلى هناك، اختبئي. سأخسر وظيفتي، اهربي، اختبئي!». ولمّا سمع معلّم المدرسة الوشوشات تابع بالقول:

- لستَ وحدك هنا!

- بلى يا سيّد غرابو.

- كلاّ، فأنت تتكلّم مع أحد.

- أقسم لك بأنّني وحدي يا سيّد غرابو.

فتابع المعلّم الهرِم: «سنرى!»، ثمّ أقفل الباب بالمفتاح ونزل ليُحضر شمعة.

فإذا بالشّابّ، وكان هلِعاً كالكثير من الشّبان، يفقد صوابه، وكان على ما يبدو يكرّر وقد استشاط فجأةً غضباً: «بربّكِ، اختبئي حتّى لا يجدكِ. سوف تحطّمين مستقبلي المهنيّ... اختبئي، أستحلفكِ!».

وسُمِعَ صوت المفتاح يدور من جديد في القفل.

فركضت هورتانس صوب الكوّة المطلّة على الشّارع وفتحتها بسرعة ثمّ قالت بصوتٍ هامس وحاسم:

- تعالَ والتقطني بعدما يرحل.

وقفزت.

لم يجد السيّد غرابو أحداً ونزل متفاجئاً جدّاً.

وبعد ربع ساعة، دخل سيجيبير إلى منزلي وطفق يروي لي ما حدث. كانت الشّابّة قد بقيت أسفل الحائط عاجزة عن النّهوض بعدما وقعت من علوّ طابقين اثنين. فرافقتُه لإحضارها. كان المطر يهطل بغزارة، فأحضرتُ إلى منزلي تلك المسكينة التي كانت ساقها اليمنى مصابة بثلاثة كسور وقد اخترقت العظام اللّحم الحيّ. وما كانت تشكو، بل فقط تقول بإذعانٍ مثيرٍ للإعجاب:

«إنّه قَصاصي! قَصاصي!».

ثمّ استدعيتُ رجال الإسعاف وأبوَي العاملة اللذين اخترعتُ لهم حكاية عربة مسرعة دهستْها وشوّهت قدمها أمام منزلي.

فصدَّقوني وبقيت الشّرطة تبحث بلا طائل طوال شهر عن المسؤول عن الحادث.

هذه هي قصّتي! وأنا أرى في تلك المرأة بطلة، من طينة أولئك اللّواتي يحقّقن أهمّ الإنجازات التّاريخيّة.

كان ذلك حبّها الوحيد. لقد توفّيت عذراء. إنّها لَشهيدةٌ، نفْسٌ عظيمة ومتفانية رائعة! ولو لم أكن أمحضها إعجاباً خالصاً لما رويتُ لكم هذه الحكاية التي لم أشأ يوماً أن أرويها خلال حياتها، وأنتم تدركون السّبب طبعاً».

كان الطّبيب قد سكت. وكانت أمّي تبكي. أمّا أبي فتلفّظ ببضع كلمات لم أفهمها جيّداً، ثمّ خرجوا.

وبقيتُ أنا راكعاً على ركبتَيّ على الكنبة أنتحب بينما أسمع صوتاً غريباً وخطواتٍ ثقيلة وصخبَ ارتطام على الدّرج.

كانوا يرفعون جثمان كلوشيت.

21 كانون الأوّل/ديسمبر 1886

الحُفرة

«لكمات وجراح تسبّبت بالوفاة». تلك هي التّهمة التي من أجلها كان السيّد ليوبولد رونار، وهو صانع مفروشاتٍ، يمْثل أمام محكمة الجنايات.

حوله كان الشّهود الرّئيسيّون: السيّدة فلاميش أرملة الضّحيّة، والمدعوّان لوِي لادورو وهو نجّار، وجان دوردان وهو سمكريّ.

إلى جانب المجرم كانت زوجتُه، وقد ارتدت الأسود، وهي امرأة قصيرة القامة وقبيحة وتبدو شبيهة بقردة ألبسوها ثياب سيّدة.

وإليكم كيف روى ليوبولد رونار المأساة:

- أُقسم بالله، إنّ ما حصل مصيبة أنا منذ البداية ضحيّتها الأولى، ولا يد لي فيها. والأحداث تحكي عن نفسها يا حضرة القاضي. أنا رجلٌ شريف، رجلٌ مجتهد يحبّ العمل، صانع مفروشاتٍ أعمل في الشّارع ذاته منذ ستّ عشرة سنة، يعرفني الجميع ويكنّون لي المحبّة والاحترام والتّقدير كما أكّد لكم الجيران، حتّى البوّابة وهي شخص رصين. أحبّ العمل والادّخار وأحبّ النّاس الشّرفاء والملذّات البريئة. وهذا ما أهلكني، فتبّاً لي. ولكن بما أنّ الأمور كانت خارجة عن إرادتي فإنّني سأواصل احترام نفسي.

إذن، أنا وزوجتي الحاضرة ههنا، نواظب منذ خمس سنوات على الذّهاب إلى «بواسّي» حيث نمضي النّهار كلّه. فنروّح عن أنفسنا، فضلاً عن أنّنا نحبّ صيد الأسماك، نحبّه كثيراً. إنّ «ميلي» هي من بثّت فيّ هذا الشّغف بالصّيد، هي الخبيثة، حتّى أنّها أكثر تعلّقاً به منّي، هذه الشّريرة، فكلّ الشّرّ في هذه المسألة يأتي منها كما سترون.

أنا قويّ ولطيف ولستُ شرّيراً. أمّا هي! فيا إلهي! إنّها باهتة وصغيرة الحجم وهزيلة ولكنّها أكثر إيذاءً من نِمْس[1]. لا أنكر

---

(1) النِّمس حيوان لبون وآكل للّحم كثير السّطو على الدّجاج (المترجمة).

أنّها تتمتّع بمزايا، وبمزايا مهمّة لتاجر مثلي. أما طبْعها! فاسألوا عنه في المنطقة، حتّى البوّابة التي برّأتني قبل قليل... ستخبركم عن طبعها.

كلّ يومٍ كانت تُعيب عليّ وداعتي: «لو كنتُ في مكانك لما تركتهم يفعلون هذا! لو كنتُ في مكانك لما تركتهم يفعلون ذلك». لو استمعتُ إليها يا سيّدي القاضي لأُرغِمتُ على خوض ثلاث نزالات بالأيدي في الشّهر الواحد...

فقاطعته السيّدة رونار: «قلْ ما شئتْ. يضحك كثيراً من يضحك أخيراً».

فالتفتَ صوبها وقال ببراءة:

- يمكنني تحميلكِ المسؤوليّة طالما أنّكِ لستِ متّهمة...

ثمّ التفت مجدّداً صوب القاضي وتابع:

- حسناً سأُكمل. كنّا إذن نذهب إلى بواسّي كلّ مساء سبت لنصطاد السّمك منذ طلوع فجر يوم الأحد. إنّها عادةٌ تحوّلت إلى طبيعة ثانية كما يُقال. وكنتُ قبل ثلاث سنوات قد اكتشفتُ مكاناً! ويا له من مكان! يا إلهي! في الظّلّ، ثمانية أقدام من المياه على الأقلّ، وربّما عشر أقدام، إنّه ببساطة حفرة، مع حُفَرٍ إضافيّة تحت الجرف، جُحرُ أسماكٍ فعليّ، إنّه النّعيم بالنّسبة إلى صيّاد سمك. كان بوسعي يا سيّدي القاضي أنّ أعدّ تلك الحفرة ملْكاً

لي باعتباري مكتشفها. والجميع في المنطقة كانوا يعرفون ذلك بلا استثناء. كانوا يقولون: «هذا المكان هو مكان رونار». ولم يكن أحد يأتي إليه ولا حتّى السيّد بلومو المعروف - ولا أقصد إهانته - بنشلِ أماكن الآخرين.

وعليه، فواثقاً من عثوري على المكان، كنتُ أعود إليه باعتباره ملْكي. وما كدنا نصل أنا وزوجتي يومَ السّبت ذاك حتّى ركبنا «دليلة» - و«دليلة» هو اسم نروجيّتي[1]، قاربي الذي بناه من أجلي «فورنيز»، شيءٌ ما خفيف وآمن. ركبنا إذَن «دليلة» وكنّا نوشك على تحضير الطّعوم. ولا أحد بارعٌ مثلي في هذا، والرّفاق يعرفون ذلك. وقد تسألونني ما كنت أستخدم لتحضير الطّعوم. ولكن لا يمكنني الإجابة. فهذا لا علاقة له بالحادث. لا يمكنني أن أجيب، إنّه سرّي أنا. أكثر من مائتي شخص حاولوا انتزاعه منّي. قُدّمت لي كؤوس صغيرة وسمك مقليّ وأطباقُ سمَكيّة[2] لجعلي أتكلّم!! ولكن عبثاً. آه كم جاملوني ليعرفوا وصفتي... ولكنْ وحدها زوجتي تعرفها... ومثلي أنا، مستحيل أن تُفشي هي بها!... أليس كذلك يا «ميلي»؟...

---

(1) نروجيّة (نسبة إلى بلد النّروج): سفينة شراعيّة صغيرة ذات حيزوم مقوّس ومرتفع (المترجمة).

(2) سمَكيّة: طبق مصنوع من أسماك مختلفة مطبوخة بالبصل والنّبيذ الأحمر (المترجمة).

فقاطعه القاضي:

- عجّلْ في الوصول إلى الوقائع.

فتابع المتّهم:

- أنا آتٍ إليها، أنا آتٍ. وعليه، ففي يوم السّبت 8 تمّوز ركبنا قطار السّاعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة وذهبنا قبل العشاء لنرمي الطّعوم مثلما نفعل كلّ يوم سبت. كان الطّقس يُنبئ بأنّه سيكون جميلاً. وكنتُ أقول لميلي: «حبّذا يوم الغد!»، فكانت تجيب: «الطقس واعدٌ بصيد وفير». وهذا أقصى كلام يدور بيننا.

ثمّ عدنا للعشاء. وكنتُ سعيداً وعطشان. وهذا سبب كلّ شيء يا سيّدي القاضي. قلتُ لميلي: الطّقس جميل يا ميلي، ما رأيكِ لو شربتُ قنّينة من شراب «قلنسوة النّوم». إنّه شراب أسميناه كذلك لأنّكَ إن أكثرت من شربه أبعد عنك النّعاس وصار رفيق سهرتك بدلاً من قلنسوة النّوم. تفهمون ذلك طبعاً.

فأجابتني: «افعلْ كما تشاء، ولكنّك ستمرض كالعادة ولن تتمكّن من النّهوض غداً». وأعترف أنّ هذا كان صحيحاً وحكيماً وينمّ عن حذر ونباهة. ولكن لم أتمكّن من تمالك نفسي فشربتُ القنّينة. وهذا هو ما تسبّب بكلّ شيء.

إذن، عجزتُ عن النّوم. يا ربّ السّموات! بقيَت قلنسوة النّوم هذه التي هي من عصير العنب مسيطرة عليّ حتّى الثّانية

فجراً. ثمّ فجأةً غططتُ في النّوم. وأيّ نوم! نوم عميق لا يخرجني منه ولا حتّى صياح ملاك يوم القيامة.

باختصار، أيقظتني زوجتي في السّادسة. فقفزتُ من السّرير، ارتديتُ بسرعة سروالي وسترتي، غسلتُ وجهي على عجل، وقفزنا في «دليلة». ولكن كان الأوان قد فات. فلمّا وصلتُ إلى حفرتي، وجدتُ أنّها صودِرَت! لم يسبق أن حصل هذا معي يا سيّدي القاضي! ولا مرّة منذ ثلاث سنوات! شعرتُ كما لو أنّني أُنهَب وأرى ذلك بأمّ عينيّ. فردّدتُ: «اللّعنة! اللّعنة! اللّعنة!»، ثمّ بدأت زوجتي تؤنّبني: «إليك نتيجة قلنسوة النّوم! أيّها الشّرّيب! هل أنتَ مسرورٌ يا غبيّ؟».

ولم أكن أجيب بشيء، فكلّ ما تقوله كان صحيحاً.

ورغم كلّ شيء نزلتُ من المركب غير بعيدٍ عن المكان في محاولة للاستفادة ممّا تبقّى. فلعلّ الرّجل لن يصطاد شيئاً ويرحل.

كان رجلاً قصير القامة وهزيلاً يرتدي سترة صيدٍ بيضاء تفتقر للأناقة ويعتمر قبّعة قشّ كبيرة. كانت زوجته برفقته كذلك، وهي امرأة ضخمة كانت جالسة خلفه تحوك بساطاً.

ولّما رأتنا نستقرّ قرب المكان، جعلت تهمس:

– أليس هناك مكانٌ آخر على النّهر؟

فما كان من زوجتي التي كانت تشتعل غيظاً إلاّ أن أجابت:

- الأشخاص المهذَّبون يستعلمون أوّلاً عن عادات الجوار قبل أن يصادروا الأمكنة المحجوزة.

ولأنّني راغب في تفادي المشاكل، قلتُ لها:

- اصمتي يا ميلي. دعي عنكِ، دعي عنكِ، فسوف نرى.

فأوقفنا «دليلة» تحت أشجار الصّفصاف، ونزلنا ورحنا أنا وميلي نصطاد جنباً إلى جنب، إلى جوار الزّوجين الآخَرين بالضّبط.

وهنا يا سيّدي القاضي، أنا مضطرّ للدّخول في التّفاصيل.

لم تكن قد مرّت خمس دقائق على وجودنا في ذلك المكان عندما راحت صنّارة جاري تغوص مرّتين أو ثلاثاً. ثمّ ها هو يصطاد سمكة طحّان بحجم فخذي، ربّما أصغر منها بقليل ولكن بحجمها تقريباً! فإذا بقلبي يخفق وصدغيّ يتعرّقان وميلي تقول لي:

- أرأيتَ هذا أيّها الشرّيب!

عندئذٍ مرّ السيّد برو بقّال «بواسّي»، وهو من جهته يهوى صيد الغجوم، أقول مرّ بقاربه وصاح يخاطبني: «هل أخذوا منك مكانك يا سيّد رونار؟»، فأجبته: «نعم يا سيّد برو، ففي هذا العالم أشخاص يفتقدون للرّهافة ويجهلون الأعراف».

كان يبدو على الصيّاد قصير القامة القابع في جواري أنّه لم

يسمع، ولا زوجته كذلك، زوجته الضّخمة البلهاء!

فقاطعه القاضي مرّة ثانية: «حذارِ! أنت تُهين السيّدة الأرملة فلاميش الحاضرة هنا».

فهتف رونار: «آسف! آسف! إنّه الانفعال».

وعليه فلم يكد يمضي ربع ساعة حتّى اصطاد الرّجل الضئيل سمكة أخرى، من نوع الطّحّان أيضاً، ثمّ أخرى بعدها فوراً، وأخرى بعد خمس دقائق.

أمّا أنا، فكنتُ على وشك البكاء. ثمّ إنّني كنتُ أشعر بالسيّدة رونار، زوجتي، تغلي غضباً. كانت لا تكفّ عن ملاحقتي بالقول: «آه! يا للبؤس! ألا ترى أنّه يسرق سمكك؟ ألا ترى هذا؟ وأنت لن تحصل على شيء، ولا حتّى على ضفدعة، لا شيء، لا شيء البتّة! مجرّد التّفكير في الأمر يجعلني أشتعل غضباً».

أمّا أنا فكنتُ أقول في نفسي: «فلننتظر حلول الظّهر. فسيذهب هذا اللّصّ ليتغدّى وأستعيد أنا مكاني». ذلك أنّني، يا حضرة القاضي، أتناول في أيّام الآحاد غدائي في المكان ذاته. فنحن نُحضِر زادنا معنا إلى متن «دليلة».

آه! يا للسّعادة! دقّت الثّانية عشرة ظهراً! ولكنّ اللّص كان قد أحضر معه فرخةً ملفوفة بجريدة. وبينما هو يأكل، إذا به يصطاد سمكة طحّان إضافيّة!

كنّا أنا وميلي نأكل أيضاً، ولكن طعاماً خفيفاً، هكذا بسرعة، لا شيء تقريباً، من دون شهيّة.

لذا، ولكي أساعد نفسي على الهضم، تناولتُ الجريدة. فكلّ يوم أحد، أقرأ جريدة «جيل-بْلا»، هكذا في الفيء، عند حافّة النّهر. فأنتَ تعرف: هو يومُ كولومبين. كولومبين التي تكتب مقالات في «جيل-بْلا». ومن عادتي أن أُغيظَ السيّدة رونار بادّعائي بأنّني أعرفها، كولومبين تلك. ولكنّ هذا غير صحيح، فأنا لا أعرفها ولم أرَها يوماً، ولكن ما همّ! فهي تكتب مقالات ممتازة. ثمّ إنّها تنطق بأشياء بالغة الجرأة بالنّسبة لامرأة. وهي تُعجبني، فليس هناك الكثير من مثيلاتها.

ثمّ رحتُ أعابث زوجتي، ولكنّها غضبت فوراً وبعنف. فسكتُّ.

وفي تلك اللّحظة وصل من الجهة الأخرى من النّهر شاهدانا الحاضران هنا: السيّد لادورو والسيّد دوران. وكنّا نعرف بعضنا البعض معرفةً سطحيّة.

وكان الرّجل الضئيل قد عاود الصّيد. كان يصطاد بوفرةٍ جعلتني أرتجف. ثمّ راحت زوجته تقول: «المكان جيّد جدّاً، سوف نعود دوماً إلى هنا يا ديزيريه!».

فأصابني الرّعب. وكانت السيّدة رونار تكرّر: «لستَ رجلاً،

لستَ رجلاً. دماء فراخٍ هي هذه التي تسري في عروقك».

فقلتُ لها فجأةً: «اسمعي، أفضّل أن نغادر وإلاّ لارتكبتُ حماقة».

فهمستْ لي: «أنتَ لستَ رجلاً. تريد الهرب الآن والتخليّ عن مكانك! إذهب إذن يا «بازين»[1]!».

شعرتُ بأنّ كلامها أصاب فيّ مقتلاً، ولكنّني لم أردّ.

أمّا هو فاصطاد سمكة أبرميس. آه! لم أرَ في حياتي مثلها قطّ!

وها إنّ زوجتي تعاود الكلام بصوتٍ عالٍ كما لو أنّها تفكّر. وكان المكر في كلامها واضحاً. فكانت تقول: «هذا ما يمكن أن نسمّيه سمكاً مسروقاً، فنحنُ من رمى الطّعوم في المكان. يجدر بهما على الأقلّ إعادة المال الذي أنفقناه على الطّعوم».

فإذا بالسّمينة زوجة الرّجل الضئيل تقول بدورها: «أَإلينا توجّهين كلامك يا سيّدة؟».

– كلامي موجّه لسارقي السّمك الذين يستفيدون من المال الذي أنفقه سواهم.

---

(1) تشبّهه بفرانسوا أشيل بازين François Achille Bazaine (1811–1888) مارشال فرنسيّ، خدم في الجزائر وشبه جزيرة القرم والمكسيك. ولكنّ شهرته تتأتّى خصوصاً من كونه فشل في أداء مهامّه كقائد عامّ لجيش الرّاين وساهم بالتّالي في هزيمة بلاده خلال حرب 1870 التي تجابه فيها الفرنسيّون والبروسيّون الألمان (المترجمة).

- أنحن من تنعتين بسارقي سمَك؟

وراحتا تتناقشان ثمّ وصل بهما الأمر إلى السّباب. ويا ويلتاه!، كم تعرفان من الشّتائم هاتان الوقحتان! شتائم بالأكوام! كانتا تزعقان عالياً حتّى أنّ الشّاهدَين، اللّذين كانا على الضّفّة الأخرى، راحا يصرخان مازحين: «يا أنتما! هناك! قليلاً من الصّمت! ستُعيقان زوجيكما عن الصّيد».

والواقع أنّنا أنا والرجل الضئيل لم يكن يطرف لنا جفن. لبثنا في مكانَينا، ننظر إلى الماء كما لو أنّنا لم نسمع.

ولكنّنا كنّا نسمع جيّداً! «لستِ سوى كاذبة. - لستِ سوى منحلّة. - لستِ سوى حقيرة. - لستِ سوى فاسقة». وهكذا دواليك. حتّى البحّارة ليس لديهم رصيدٌ من الشّتائم أكبر.

وفجأةً سمعتُ ضجيجاً خلفي. فالتفتُّ. كانت تلك هي المرأة الأخرى، السّمينة، تنهال على زوجتي ضرباً بمظلّتها. فكان نصيب مِيلي ضربتين. ولكنّ مِيلي من النّوع الغضوب، وهي عندما تغضب تضرب. فلم يكن منها إلاّ أن التقطت السّمينة من شعرها، ثمّ «باف! باف! باف!»، راحت الصّفعات تنهمر عليها مثل ثمار الخوخ.

لو كان الأمر عائداً إليّ وحدي لتركتهما تتعاركان. النّساء يواجهن النّساء والرّجال يواجهون الرّجال. يجب ألاّ تختلط

الضّربات. ولكنّ الرجل الضئيل قام مستشرساً يريد مهاجمة زوجتي. آه! كلاّ! كلاّ! لا هذا يا رفيقي! فما كان منّي إلاّ أن عاجلتُ ذلك العصفور بلَكمتين. بوم! بوم! واحدة على أنفه وأخرى على بطنه. فرفع ذراعيه، ثمّ رفع ساقه وهوى على ظهره في النّهر، في الحفرة تحديداً.

كنتُ سأنتشله يا حضرة القاضي لو تسنّى لي الوقت. ولكنّ السّمينة كانت تفوز بالغلبة وتضرب ميلي بلا هوادة. أعرف جيّداً أنّه ما كان عليّ أن أهبّ لنجدتها فيما كان الآخر يكرع المياه. ولكنّني لم أكن أتصوّر أنّه سيغرق. كنتُ أقول في نفسي: «إنّ هذا سيُنعشه!».

فركضتُ صوب المرأتين لتفريقهما. فتلقّيت لطماتٍ وخرمشاتٍ وعضّات. إلهي! يا لهما من مؤذيتين!

باختصار، لزمني أكثر من خمس دقائق، ربّما عشر لتفريق تينك الكمّاشتين.

ثمّ التفتّ فلم أرَ شيئاً. كانت المياه ساكنة مثل بحيرة وكان الرّجلان الآخران في البعيد يصرخان: «انتشلْه من الماء، انتشلْه!».

يسهل قول هذا! ولكنّني لا أجيد السّباحة! ولا الغوص كذلك، هذا مؤكّد!

وفي النّهاية حضر حارس السدّ ورجلان يحملان خطّافات،

ودام بحثهم أكثر من ربع ساعة وجدوه بعدها في أسفل الحفرة، على عمق ثمانية أقدام من المياه كما قلتُ، هناك كان ذلك الرّجل الضئيل!

هذه هي الوقائع كما جرت. أنا بريء، أُقسِم.

ولمّا كان الشّاهدان قد أفادا بالأمر نفسه، فقد انتهت المحكمة بتبرئة المتّهم.

9 تشرين الثّاني/نوفمبر 1886

بييرو

– إلى هنري روجون

A Henri Roujon

كانت السيّدة لوفيفر امرأةً ريفيّةً وأرملةً وواحدةً من أولئك النّسوة شبه الفلاّحات اللّواتي تعجّ ملابسهنّ بالشّرائط وقبّعاتهنّ بالزّينة المفرطة. واحدة ممّن يتعاظمون بين النّاس ويتشدّقون في الكلام في حين أنّهم يوارون نفوساً جَلِفة ومدّعية خلف مظاهر مُضحكة ومُبهرجة، تماماً كما يخبّئون أيديهم الحمراء الضّخمة تحت قفّازات من الحرير الخامّ.

وكانت فتاة ريفيّة بسيطة وطيّبة تُدعى روز تعمل عندها خادمةً.

كانت المرأتان تعيشان في منزل صغير ذي شبابيك خضراء،

إلى جانب إحدى الطّرق في النّورماندي في وسطِ منطقة «كو».

كانتا تملكان أمام المنزل حديقة صغيرة، فزرعتا فيها بعض الخضار.

وذات ليلة، سُرقت منها دزينة من البصلات.

وما إن انتبهت روز للسّرقة حتّى هُرِعت تُبلغ سيّدتها، فنزلت هذه بتنّورةٍ صوفيّة.

كان ذلك باعثاً للأسى والرّعب. لقد سُرِقت السيّدة لوفيفر! سُرقت! هذا يعني أنّ في المنطقة لصوصاً، وأنّ بوسعهم العودة.

جعلتِ المرأتان المذعورتان تتأمّلان آثار الخطوات وتتحدّثان وتفترضان أشياء: «هاكِ، لقد مرّوا من هنا. لقد وضعوا أقدامهم على السّور. لقد قفزوا في المْسكبة».

كانتا مرتعبتين من أجل المستقبل. فما السّبيل إلى النّوم باطمئنان الآن؟

وانتشر خبر السّرقة. فجاء الجيران وتثبّتوا من الأمر وتناقشوا بدورهم. وكانت المرأتان تشرحان لكلّ زائر جديد ملاحظاتهما وأفكارهما.

ثمّ قدّم لهما مُزارع يعيش غير بعيد عن منزلهما النّصيحة التّالية: «يجدر بكما أن تقتنيا كلباً».

كان الرّجل مصيباً. يجدر بهما اقتناء كلب، على الأقلّ بهدف

التّنبيه. ليس كلباً كبيراً، آه لا! إذ ما حاجتهما لكلب كبير! فإطعامه سيتسبّب بإفلاسهما. لا بل يلزمهما كلب صغير، كلب نشِط دائم النّباح.

وما إن غادر الجميع حتّى ناقشت السيّدة لوفيفر مسألة الكلب مطوّلاً. وبعد التّفكير راحت تجد ألف مانع ومانع، وقد أصابها الرّعب وهي تتخيّل قصعة مملوءة بطعام الكلاب. فهي كانت من نمط النّساء الرّيفيّات البخيلات اللّواتي يحملن دوماً في جيوبهنّ بضعة سنْتات ليتصدّقنَ علانيةً على فقراء الطّريق ويهبنَ شيئاً منها لحملات جمع التبرّعات في الآحاد.

أمّا روز التي كانت تحبّ الحيوانات، فأتت بحججها ودافعت عنها بدهاء. فصدر القرار باقتناء كلب، كلبٍ صغير جدّاً.

وبدأ البحث، ولكنّهما لم يعثرا إلاّ على كلاب ضخمة ولهّامة حساء مُريعة. وكان بقّال رولفيل يملك كلباً، صغيراً تماماً. ولكنّه طلب فرنكين تعويضاً عن كلفة تربيته. فكان جواب السيّدة لوفيفر أنّها ترضى بأن تُطعمَ كلباً ولكنّها لن تدفع مالاً مقابل الحصول عليه.

وكان الخبّاز عارفاً بما يجري، فأحضر ذات صباحٍ في عربته حيواناً صغيراً أصفر عجيباً، يكاد يكون بلا قوائم، له جسم تمساح ورأس ثعلب وذيل أشبه ما يكون بالبوق، زينة فعليّة،

ضئيلاً ككلّ ما فيه. كان أحد زبائنه يريد التخلّص منه. فوجدت السيّدة لوفيفر جميلاً جدّاً ذلك الكُلَيب المقزّز الذي لا يكلّف شيئاً. أمّا روز فقبّلته ثمّ سألت عن اسمه. فأجابها الخبّاز: «بييرو».

فوضعَتاه في صندوق صابون قديم وقدّمتا له الماء في البداية ليشرب. فشرب. ثمّ قدّمتا له قطعة خبز. فأكل. فانتاب السيّدة لوفيفر القلق وخطرت لها فكرة: «عندما يعتاد المنزل، سندَعه طليقاً. وسيجد ما يأكله أثناء تسكّعه في الجِوار».

وبالفعل، ظلّ طليقاً ولكنّ هذا لم يحل دون تضوّره جوعاً. فضلاً عن أنّه لم يكن ينبح إلاّ ليُطالب بحصّته من الطّعام. وكان إذذاك ينبح بضراوة.

وكان يمكن للجميع أن يدخلوا الحديقة. فقد كان بييرو يداعب كلّ زائر ويبقى صامتاً تماماً.

ومع ذلك، اعتادت السيّدة لوفيفر هذا الحيوان. وصل بها الأمر إلى حدّ أن أحبّته وباتت تُطعمه من يدها من حينٍ لآخَر لُقَماً من الخبز مغمّسة بمَرقِ طعامها. ولكنّها لم تفكّر قطّ في الضريبة الواجب تسديدها، ولمّا طُلِب منها دفع ثمانية فرنكات - «ثمانية فرنكات، يا سيّدتي!» - ضريبةً لاقتناء ذلك الكُلَيب البائس، العاجز حتّى عن النّباح، كاد يُغمى عليها من الانفعال.

فقرّرتا فوراً التّخلّص من بييرو. ولكنّ أحداً لم يشأ أن يأخذه.

رفضه كلّ السّكّان على بُعد عشرة فراسخ في الأنحاء. وفي غياب وسيلةٍ أخرى، صمّمت المرأتان على جعله «يأكل السّجّيل»[1]، وكان هذا مصير الكلاب التي يُراد التّخلّص منها.

في وسطِ سهلٍ شاسع، يمكن رؤية ما يشبه الكوخ، أو بالأحرى سقفاً صغيراً من القشّ موضوعاً أرضاً. إنّه مدخل مقلع السّجّيل. وهو عبارة عن بئر عميقة ومستقيمة تصل إلى عمق عشرين متراً تحت الأرض وتفضي إلى سلسلة من دهاليز المقلع الطويلة.

ينزل النّاس إلى هذا المقلع مرّة واحدة في السّنة، في موسم إصلاح التّربة بالسّجّيل. أمّا بقية الوقت فيُستخدم مقبرة للكلاب التي يُراد التّخلّص منها. وعندما يمرّ الواحد إلى جانب فوّهته، غالباً ما يصله عواءٌ شاكٍ ونباحٌ غاضب أو يائس ونداءات تُثير الشّفقة.

وكانت كلاب الصّيّادين والرّعاة تفرّ هلعاً من محيط تلك الحفرة النّائحة. وعندما تنحني فوق فوّهتها تصلك رائحة عفونة لا تُحتمل.

وكانت مآسٍ رهيبة تحصل في عتمة البئر.

(1) السجّيل: صخرٌ طريّ، هو خليط من كربونات الكلس والطّين مع قليل من الرّمل ومواد أخرى يُستخدم في استصلاح الأراضي وصناعة الإسمنت والبلاط والسّيراميك (المترجمة).

فعندما تكون عشرة أيّام أو اثنا عشر يوماً قد مرّت على حيوانٍ ينازع في الأسفل، مُقتاتاً من البقايا القذرة للحيوانات التي سبقته، يُلقى فجأةً بحيوان جديد أكبر منه وأقوى بالتّأكيد. ها هما وحدهما، يتضوّران جوعاً وعيونهما تلتمع. يراقب الواحد منهما الآخر، ويلاحقه بنظراته، متردّداً وقلِقاً. ولكنّ الجوع يستحثّهما، فيُهاجم أحدهما الآخر ويتصارعان طويلاً وباستبسال، قبل أن يأكل الأقوى بينهما الأضعف، ويلتهمه حيّاً.

ولمّا قرّرت المرأتان رميَ بييرو في البئر، بحثتا عن شخصٍ توكلان إليه بالمهمّة. طلب العامل المسؤول عن نزعِ أعشاب الطّريق عشرة سنْتات. فرأت السّيّدة لوفيفر أنّ هذا مُبالَغٌ فيه كثيراً. أمّا الجار النّذل فاكتفى بطلب خمسة سنْتات. ولكنّ هذا كان كثيراً أيضاً. ولمّا أبدت روز ملاحظة مفادها أنّ من الأفضل أن تأخذا بنفسيهما الكلب إلى هناك حتّى لا يُعامَل بقسوة في الطّريق فيعلم بما ينتظره، قرّرتا أن تذهبا هما الاثنتان مع حلول اللّيل.

وفي ذلك المساء، قدّمتا له حساءً لذيذاً مع شيءٍ من الزّبدة، فالتهمه حتّى آخر نقطة. وكان يحرّك ذيله راضياً، فحملته روز في مئزرها.

كانتا تمشيان عبر السّهل بسرعة كمثْلِ لصّين. وسرعان ما لمحتا

مقلع السجّيل وبلغَتاه. فانحنت السيّدة لوفيفر لتُصغي وترى ما إذا كان ثمّة حيوانٌ يئنّ. لا، لم يكن هناك واحد. سيكون بيرو وحده. فما كان من روز التي كانت تبكي إلاّ أن قبّلته ثمّ رمته في البئر. وانحنت الاثنتان وهما تصيخان السّمع.

في البداية سمعتا صوتاً قويّاً، تلاه الأنين الحادّ والأليم لحيوان مجروح، ثمّ سلسلة من صيحات ألمٍ صغيرة، ثمّ نداءاتٍ يائسة، هي تضرّعات كلبٍ يتوسّل ورأسه مرفوعٌ صوب الفوّهة.

كان ينبح، آه! كان ينبح!

فشعرتا فجأةً بالنّدم، بالهلع، بخوفٍ مجنونٍ ليس له تفسير، فلاذتا بأذيال الفرار. كانت روز تسبق السيّدة لوفيفر، فتصرخ بها هذه الأخيرة: «انتظريني يا روز، انتظريني!».

وكانت ليلتهما مسكونةً بكوابيس مُرعبة.

فالسيّدة لوفيفر حلمت بأنّها تجلس إلى المائدة لتتناول حساءها، ولكنّها لّما رفعت غطاء الوعاء وجدت بيرو في الدّاخل. فاندفع وعضّها من أنفها.

فاستيقظت وبدا لها أنّها ما تزال تسمعه ينبح. وأصغت، فلم تسمع شيئاً.

فعادت للنّوم وحلمت بأنّها على طريقٍ طويلة، طريقٍ بلا انتهاء تتقدّم هي فيها. وفجأةً لمحت على قارعة الطّريق سلّة

مُزارِع كبيرة، متروكة. وأثارت تلك السّلّة خوفها.

ولكنّها في النّهاية فتحتها، وإذا بـ بييرو الذي كان مُختبئاً داخلها يتشبّث بيدها ولا يُفلتها. ففرّت كالمجنونة والكلب معلّق هكذا بطرف ذراعها، وقابضٌ عليها بشدقيه.

ومع الفجر استيقظت شبه مجنونة وركضت إلى مقلع السّجّيل. فكان ما يزال ينبح. كان ينبح بعدما استمرّ في النواح طوال اللّيل. فراحت تنتحب وتناديه بألف اسمٍ تحبّب وتودّد. وهو يُجيبها بكلّ نبرات الحنان التي يُجيدها كلب.

فانتابتها رغبةٌ في رؤيته من جديد، مؤمّلةً نفسها بإسعاده حتّى موتها.

وهرعت عند حَفّار الآبار المسؤول عن استخراج السّجّيل وروت له ما حصل معها. كان الرّجل يستمع إليها من دون أن ينبس ببنت شفة. ولمّا أنهت كلامها قال لها: «تريدين استرجاع كلبك؟ أربعة فرنكات».

فانتفضت وبلحظة زال كلّ ألمها: «أربعة فرنكات! ما أبهظها من أجرة! أربعة فرنكات!».

فأجاب: «أوَ تحسبين أنّني سأحضر الحبال وأذرعة التّدوير والرّفع وأنصبها كلّها، ثمّ أنزل إلى هناك مع مساعدي الصبيّ، وأتعرّض فوق ذلك لعضّات كلبك الملعون، في سبيل أن تبتهجي

باستعادته؟ كان يجب أن تمتنعي عن رميه منذ البداية».

فغادرت ساخطةً وهي تفكّر: «أربعة فرنكات!».

وما إن وصلت إلى منزلها حتّى نادت روز وأخبرتها بما طلبه حفّار الآبار. فراحت روز الممتثلة دوماً تكرّر: «أربعة فرنكات! هذا مبلغ كبير يا سيّدتي!».

ثمّ أضافت: «ماذا لو رمينا طعاماً لهذا الكلب المسكين حتّى لا يموت؟».

فوافقت السيّدة لوفيفر فرحةً. وها هما تعاودان الانطلاق ومعهما رغيف خبزٍ كبير بالزّبدة.

فقطّعتاه إلى لُقَمٍ راحتا ترميانها الواحدة تلو الأخرى وكلّ منهما تتحدّث إلى بييرو بدورها. وما يكاد الكلب يُنهي قطعةً حتّى ينبح مطالباً بالتّالية.

ورجعتا في المساء، ثمّ في اليوم التّالي وصارتا تأتيان كلّ يوم. ولكن مرّة واحدة في اليوم.

وذات صباح، وعندما كانتا تهمّان برمي اللّقمة الأولى، سمعتا فجأةً نباحاً عظيماً في البئر. كان ثمّة كلبان في الأسفل! لقد أُلقيَ كلبٌ آخر كبير!

فصرخت روز: «بييرو!» فنبح بييرو ونبح. فراحتا ترميان الطّعام. ولكن في كلّ مرّة كانتا تلاحظان بوضوح تدافعاً رهيباً

تليه صيحات ألمٍ يُطلقها بييرو وقد عضّه رفيقه الذي كان يأكل كلّ شيء لأنّه هو الأقوى.

وعبثاً كانتا تُشخّصان: «هذا لك يا بييرو! هذا لك!»، فبطبيعة الحال لم يكن بييرو يحصل على شيء.

فراحت المرأتان تتبادلان النظر حائرتين. ثمّ قالت السيّدة لوفيفر بنبرةٍ لاذعة: «لن يكون في وسعي إطعام كلّ الكلاب التي يُرمى بها هنا. ينبغي العدول عن الأمر».

وغادرت وفكرة كلّ هذه الكلاب التي تعيش على حسابها تخنقها، حاملةً معها ما تبقّى من الخبز الذي راحت تأكله وهي تسير.

أمّا روز فتبعتها وهي تمسح عينيها بطرف مئزرها الأزرق.

9 تشرين الأوّل/أكتوبر 1882

الحبل

عبرَ كلّ الطّرُق المحيطة بغودرْفيل، كان القرويّون ونساؤهم يتوافدون صوب البلدة، فقد كان ذلك يوم السّوق. كان الرّجال يتقدّمون بتؤدة وأجسامُهم تنحني بكاملها إلى الأمام مع كلّ خطوة تخطوها سيقانهم. هذه السّيقان الطّويلة المفتولة التي شوّهتها الأعمال الشّاقّة والدّعس على المحراث الذي يجعل الكتف اليُسرى ترتفع والخصر يميل، وحصدُ القمح الذي يجعل الرّكبتين تتباعَدان حفظاً للتوازن، وكلّ أشغال الرّيف البطيئة والمضنية. أمّا صدريّاتهم الزّرقاء المنشّاة واللاّمعة كما لو كانت قد طُلِيَت بالبرنيق، والمزيّنة على الياقة والكمّين برسمٍ صغير مطرّز

بخيطٍ أبيض، فكانت منتفخة حول صدورهم البارزة العظام حتّى لتبدو كأنّها منطاد على وشك الطّيران يخرج منه رأسٌ وذراعان ورِجلان.

بعضهم كان يقود بحبلٍ بقرةً أو عِجلاً. أمّا نساؤهم فكنّ يسرن خلف الحيوان ويضربنه على خاصرته بغصنٍ ما يزال محمّلاً بأوراقه ليسير بخطى حثيثة. وكنّ يحملنَ على أذرعتهنّ سلالاً كبيرة تبرز منها رؤوس دجاج من هنا، ورؤوس بطّ من هناك. وكنّ يتقدّمن بخطواتٍ أصغر من خطوات الرّجال وأكثر نشاطاً، أجسامهنّ جافّة ومستقيمة ومدثّرة بشالٍ صغيرٍ ضيّقٍ ومشبوكٍ بدبّوس على صدورهنّ المسطّحة، ورؤوسهنّ ملفوفة بغطاء أبيض يلتصق بشعورهنّ وتعلوه قلنسوة.

ثمّ مرّت عربة يجرّها حصان صغير بخببه المتقطّع، وكانت تخضّ خضّاً عجيباً رجلين يجلسان جنباً إلى جنب وامرأة في عمق العربة كانت تتشبّث بطرفها لتخفّف من الارتجاجات القويّة.

في ساحة غودرفيل، كان هناك حشدٌ كبير، جمعٌ يختلط فيه البشر والبهائم. وفي أعلى المجموع كانت تظهر قرون الثّيران وقبّعات القرويّين الأثرياء العالية ذات الوبر الطّويل وقلنسوات القرويّات. والأصوات من صائحٍ ونابحٍ وزاعقٍ تؤّلف صخباً متواصلاً وحشيّاً كان يحصل أن يطغى عليه انفجار ضاحك

طالع من الصّدر القويّ لرجلٍ ريفيّ فَرِح، أو خوار طويل لبقرة مربوطة إلى جدار أحد البيوت. ومن كلّ هذا كانت تنبعث رائحة زرائب: الحليب والسّماد، الحشيش والعرَق، وتصدر عنه تلك النّكهة اللاّذعة والفظيعة، البشريّة والحيوانيّة، التي تميّز الفلاّحين.

كان السيّد هوشكورن، من بريوتيه، قد وصل للتوّ إلى غودرفيل وكان يتجّه إلى السّاحة عندما لمح على الأرض حبلاً صغيراً. والسيّد هوشكورن، المقتصد مثل كلّ نورمانديّ أصيل، فكّر في أنّ كلّ ما يمكن التقاطه يمكن أن ينفع. فانحنى بمشقّة، إذ كان يعاني داء المفاصل، والتقط من على الأرض قطعة الحبل الرفيعة وكان على وشك أن يلفّها بعناية عندما لاحظ أنّ السيّد مالاندان، وهو سرّاج، واقفٌ أمام باب بيته ينظر إليه. وكانا في الماضي قد اختلفا حول رسنٍ وبقيا متخاصمين لأنّهما كانا كليهما حقودَين. فشعر السيّد هوشكورن بنوعٍ من الخزي من أن يراه عدوّه هكذا ملتقِطاً من الوحل قطعة حبل. فخبّأ بسرعة لقيته تحت صدريّته ثمّ في جيب سرواله. ثمّ اصطنع البحث مجدّداً على الأرض عن شيء لم يجده وتابع سيره صوب السّوق، محنيّ الرّأس وجسمه متقوّس من الآلام.

وسرعان ما ضاع في الحشد الصّاخب والبطيء، الذي يتحرّك على وقع المساومات غير المتناهية. فكان القرويّون يتلمّسون البقر

ويبتعدون ثمّ يرجعون حائرين ودوماً في خشية من أن يتعرّضوا للخداع، فلا يجرؤون على اتّخاذ قرار، يرصدون عين البائع ويظلّون يحاولون اكتشاف مكر الرّجل وعلّة البهيمة.

أمّا النّساء، فكنّ قد وضعن سلالهنّ الكبيرة عند أقدامهنّ، وأخرجنَ منها الدّواجن وطرحنَها أرضاً، موثوقة القوائم، فزِعةَ العيون، مستنفَرة الأعراف. وكنّ يستمعنَ إلى الأسعار المقترحة ويُصررنَ على تسعيراتهنّ بهيئةٍ جافّة ووجه جامد، أو يرضين فجأةً بالتّخفيض المعروض فيُنادين الزّبون الذي يبتعد بخطواتٍ بطيئة: «اتّفقنا، يا سيّد أنتيم. إنّه لك». ثمّ شيئاً فشيئاً، تفرغ السّاحة ويرتفع جرس الكنيسة مُعلناً حلول الظُّهر، ويتوزّع على الأنزال مَن جاءوا من بَعيد.

في نُزُل جوردان، كانت القاعة الكبيرة ملأى بالآكلين، والحوش الواسع غاصّاً بالعربات من كلّ نوع: طنابير وعرباتٍ بعجلتين وحصان واحد، وأخرى ذوات مقاعد، وعرباتٍ تصعب تسميتها، وكلّها صفراء من الزّبل، مشوّهة ومرقّعة، ترفع مِجَرّها[1] إلى السّماء كمثل ذراعين، أو تكون مقدّمتها غائصة في الأرض ومؤخّرتها في الهواء.

---

(1) مِجَرّ العربة: قطعة خشبيّة طويلة ممتدّة في مقدّم العربة وعلى جانبيها يكون الحصانان. ويُقال أيضاً: عريش العربة (المترجمة).

وفي مقابل النّاس الجالسين إلى الموائد يتناولون العشاء، كانت المدفأة الضخمة التي تتأجّج فيها شعلة صافية ترمي حرارتها القويّة على ظهور الجالسين في الصّفّ الأيمن. وكانت تدور فوقها ثلاثة أسياخ محمّلة دجاجاً وحماماً وأفخاذ خروف. وكانت الرّائحة اللّذيذة للّحم المشويّ والمرق السّائل على الجلد المحمّر ترتفع في الموقد وتبعث على المرح وتفتح الشّهيّة.

كلّ نخبة الفلاّحين كانت تأكل هنا، عند المعلّم جوردان، وهو صاحب نُزل وتاجر خيول، رجلٌ داهية وثريّ. وكانت الأطباق تمرّ وتفرغ مثلها مثل أباريق شراب التّفّاح الأصفر. وكان الجميع يروي صفقاته من بيعٍ وشراء، ويسأل عن أحوال القِطاف. كان الطّقس مناسباً للخضار ولكنّه كان رطباً بعض الشّيء بالنسبة إلى القمح.

وفجأةً قُرع الطّبل في حوش النُّزل. وسرعان ما هبّ الجميع واقفين باستثناء بعض اللاّمبالين، وهُرعوا صوب الباب وإلى النّوافذ وأفواههم لا تزال مليئة وفوَطهم في أيديهم.

وبعدما أنهى المُنادي قرْع الطّبل، هتف بصوتٍ غير منتظم، مقطّعاً عباراته بشكلٍ غير متناسق:

«نُعلم سكّان غودرفيل وكلّ من كان موجوداً في السّوق، أنّ أحدهم أضاع هذا الصّباح على طريق بوزفيل، بين السّاعة

التّاسعة والسّاعة العاشرة، محفظة نقود من الجلد الأسود تحوي خمسمائة فرنك ووثائق تجاريّة. نرجو ممّن يعثر عليها إحضارها إلى البلديّة في الحال أو عند السيّد فورتوني أولبراك من مانرفيل. وله عشرون فرنكاً كمُكافأة».

ثمّ غادر الرّجل. وظلّ يُسمع في البعيد قرع الآلة القويّ وصوتُ المُنادي الذي راح يخفت.

فجعل النّاس يتكلّمون عن ذلك الحدث معدّدين حظوظ السيّد أولبراك في العثور أو عدم العثور على محفظته. وانتهى الغداء.

وكانوا يوشكون على الانتهاء من شرب القهوة عندما أطلّ عريف الشّرطة عند الباب.

وسأل:

- هل السيّد هوشكورن، من بريوتيه، حاضرٌ هنا؟

فما كان من هذا الأخير، الذي كان جالساً عند الطّرف المقابل من الطّاولة، إلاّ أن أجاب:

- ها أنذا!

فتابع العريف:

- يا سيّد هوشكورن، هلاّ تفضّلتَ بمرافقتي إلى البلديّة؟ إنّ العمدة يريد التحدّث إليك.

متفاجئاً وقلقاً، كرع القرويّ كأسه الصّغيرة بجرعة واحدة وقام وهو أكثر تقوّساً ممّا كان عليه في الصّباح لأنّ الخطوات الأولى بعد كلّ استراحةٍ تكون شديدة الصّعوبة، وانطلق وهو يردّد:

- ها أنذا! ها أنذا!

وتبع العريف.

كان العمدة في انتظاره جالساً على كرسيّ. إنّه هو الكاتب العدل في المنطقة، رجلٌ ضخمٌ ووقورٌ يتكلّم بعباراتٍ طنّانة. فقال له:

- يا سيّد هوشكورن، لقد شوهِدتَ صباحاً تلتقط على طريق بوزفيل المحفظة التي أضاعها السيّد أولبراك من مانرفيل.

فنظر الرّجل الرّيفيّ إلى العمدة مصعوقاً، وقد ارتعب لمجرّد أن يشكّوا به ومن دون أن يفهم السّبب.

- أنا... أنا التقطتُ تلك المحفظة؟

- أجل، أنت بنفسك.

- أقسم بشرفي أنّني لم أعرف حتّى بأمرها.

- لقد رأوك.

- رأوني؟ أنا؟ من الذي رآني؟

- السيّد مالاندان، السّراج.

فتذكّر العجوز وفهمَ واحمرَّ غضباً.

- آه! لقد رآني هذا الفظّ! رآني ألتقط هذا الحبل الصّغير، تفضّل يا سيّدي العمدة.

ثمّ فتّش في جيبه وأخرج منها قطعة الحبل الصّغيرة.

ولكنّ العمدة هزّ رأسه غير مصدّق:

- أتريد إيهامي يا سيّد هوشكورن بأنّ السيّد مالاندان، وهو رجلٌ أهلٌ بالثّقة، قد حسبَ هذا الحبل محفظة؟

فرفع القرويّ يده غاضباً وبصق جانباً ليؤكّد شرفه وكرّر القول:

- ولكنّها الحقيقة يا سيّدي العمدة، الحقيقة الحقّ، الحقيقة المقدّسة. أقسم بروحي وبخلاصي.

فتابع العمدة:

- بعدما التقطتَ المحفظة، ظللتَ تبحث في الطّين طويلاً لترى إن كانت قد سقطت منها قطعة نقود.

فكاد الرّجل يختنق استنكاراً وخوفاً.

- كيف يمكن قول!... كيف يمكن قول!... مثل هذه الأكاذيب لتشويه سمعة رجلٍ نزيه! كيف!...

ولكن عبثاً حاول الاحتجاج، فلم يصدّقوه.

ثمّ جعلوه يتواجه والسيّد ملاندان. فكرّر هذا الأخير قوله

وأكّده. وظلاّ يتبادلان الشّتائم طوال ساعة. وطلب السيّد هوشكورن أن يفتّشوه، فلم يجدوا بحوزته شيئاً.

وفي النّهاية، تركه العمدة الذي بلبله الموقف يغادر، منبّهاً إيّاه إلى أنّه سيُبلغ المحكمة ويطلب إصدار أوامر.

وكان الخبر قد انتشر. وعند خروج الشيخ من البلديّة، تجمّع النّاس حوله وراحوا يطرحون عليه الأسئلة بشكلٍ جدّيّ وساخر ولكنّه خالٍ من أيّ استنكار. فراح يروي لهم حكاية الحبل. فلم يصدّقوه وكانوا يضحكون.

فمضى، وكان كلّ النّاس يوقفونه وهو يوقف معارفه ويُعيد بلا كللٍ حكايته وتأكيداته عارضاً عليهم جيوبه مقلوبةً ليُثبت أنْ ليس بحوزته شيء.

وكانوا يقولون له:

- أيّها الماكر الكبير!

فكان يغضب ويغتاظ، منفعلاً وحزيناً لأنّهم لا يصدّقونه، غير عارفٍ ما يفعل ومستمرّاً برواية حكايته.

ثمّ حلّ اللّيل، وحان وقت الرّحيل. فانطلق برفقة ثلاثة جيرانٍ له دلّهم على المكان الذي التقط فيه قطعة الحبل. وطوال الطّريق ظلّ يروي حكايته.

وفي المساء، قام بجولةٍ في قرية بريوتيه ليُخبر الجميع بما جرى.

فلم يُصادِف إلاّ مُشكّكين.

فأسقَمَه الأمر طوال اللّيل.

وفي اليوم التّالي، في حوالى السّاعة الواحدة بعد الظّهر، كان ماريوس بوميل، وهو أجيرٌ عند السيّد بروتون، وهذا الأخير مُزارعٌ من إيموفيل، يُعيد المحفظة بما فيها إلى السيّد أولبراك من مانرفيل. وزعمَ أنّه عثر عليها في الطّريق. ولكونه لا يُجيد القراءة، حملها إلى المنزل وسلّمها إلى ربّ عمله.

وانتشر الخبر في الأنحاء. ووصل إلى السيّد هوشكورن الذي قام فوراً بجولة وبدأ يروي قصّته مُضيفاً إليها الخاتمة. لقد انتصر!

وكان يقول: «ليس الأمر بحدّ ذاته هو ما أحزنني، بل الكذب. لا شيء يؤذيك مثل تعرّضك للرّيبة من قبل النّاس بسبب كذبة».

وأمضى سحابة نهاره يحكي عن الحادثة. رواها على المارّة في الطّرق، وعلى الشاربين في المقاهي، وعلى الخارجين من الكنيسة في الأحد التّالي. وكان يستوقف الغرباء ليقصّها عليهم. لقد ارتاح الآن ومع ذلك فإنّ شيئاً ما كان يزعجه دون أن يعرف ما هو تحديداً. كان النّاس يتهكّمون وهم يسمعونه. لم يكن يبدو عليهم أنّهم مقتنعون. وكان يشعر بأنّهم يتكلّمون عليه في غيابه.

وفي يوم الثّلاثاء التّالي، قصد سوق غودرفيل غيرَ مدفوعٍ إلاّ بالحاجة ليروي حكايته. فراح مالاندان الواقف أمام باب بيته

يضحك لمّا رآه يمرّ. لماذا؟

ثمّ أوقفَ مزارعاً من كريكتو فلم يدَعه هذا الأخير يكمل روايته وعاجله بضربة وديّة على بطنه وهتف في وجهه: «اذهب أيّها المحتال الكبير!». ثمّ أدار له ظهره ورحل.

فبقي السيّد هوشكورن مذهولاً وازداد قلقه. لمَ يا ترى وصفَه بالمحتال الكبير؟

وعندما جلس إلى المائدة في نُزُل جوردان، راح من جديدٍ يشرح القضيّة. فهتف له نخّاس من مونتيفيلييه:

- هيّا هيّا، إنّها حيلةٌ قديمة، إنّني أعرفُه جيّداً، حبْلك ذاك!

فتمتم هوشكورن:

- ولمَ تقول هذا؟ ألم يعثروا على تلك المحفظة؟

ولكنّ الآخَر تابع قائلاً:

- اسكتْ يا صديقي، فالحيلة معروفة: واحد يجد وآخَر يُعيد. بمنتهى الخفاء. وينطمس الأمر!

فاختنق القرويّ غيظاً. وأخيراً أدرك الأمر. إنّهم يتّهمونه بأنّه أرجع المحفظة بواسطة شريك متواطئ معه.

فأراد الاعتراض. إلاّ أنّ كلّ من كانوا على الطّاولة انفجروا بالضّحك.

فلم يتمكّن من إنهاء عشائه وغادر وسطَ تعابير الازدراء.

وعاد إلى بيته وهو يشعر بالعار والغيظ ويخنقه الغضب والحَرَج. وما أذهله بخاصّةٍ هو أنّه كان، بمَكْره كرجلٍ نورمانديّ، قادراً على فعل ما يُتّهم به، لا بل حتّى على التّباهي به كحيلةٍ ناجحة. فكان يبدو له أنّ إثبات براءته أمرٌ مستحيل، لأنّ مكْره كان معروفاً. وكان يشعر بأنّ الشكّ الظّالم يُصيبه في الصّميم.

فعاد يروي الحادثة، مُطيلاً حكايته كلّ يوم، ومُضيفاً في كلّ مرّة أسباباً جديدة، واحتجاجات أكثر حيويّة وأيماناً أغلظ كان يتخيّلها ويهيّئها في ساعات خلوته، لا يشغل فكره إلاّ حكاية الحبل. وكلّما صار دفاعه عن نفسه أكثر تعقيداً ومحاجّته أكثر حذقاً، قلّ مقدار تصديقهم له.

وكان يُقال في غيابه:

- هذه حُجَج كذّابين!

وكان يشعر بما يُقال فيتأكّله القلق ويروح يُضني نفسه بمحاولات عديمة الجدوى.

وكان يذوي على مرأى النّظر.

وصار الظّرفاء يطلبون منه أن يروي حكاية «الحبل» ليتسلّوا، مثلما يُطلب من جنديّ شاركَ في حملة أن يروي المعركة التي خاضها. وكان عقله، الذي أصيب إصابة بالغة، يضعف يوماً بعد يوم.

وفي نهاية كانون الأوّل صار طريح الفراش.

وتوفّي في الأيّام الأولى من كانون الثّاني، وفي هذيان الاحتضار كان يؤكّد على براءته، مكرّراً:

- لم يكن إلاّ حبلاً صغيراً... حبلاً صغيراً... تفضّلْ، ها هوَ يا حضرة العمدة!

5 تشرين الثّاني/نوفمبر 1883

عمّي جول

– إلى السيّد أشيل بينوفيل

A M. Achille Bénouville

شيخٌ فقيرٌ، ذو لحيةٍ بيضاء، سألَنا صَدَقَة. أعطاه رفيقي جوزيف دافرانش مائة فلس. ففوجئتُ. فقال لي:

– ذكّرني هذا الفقير بحكاية سأرويها عليك ولا تزال ذكراها تلاحقني. إليك الحكاية:

كانت عائلتي من منطقة الـهافْر ولم تكن ثريّة. كنّا فقط نتدبّر أمورنا. كان أبي يعمل ويعود من المكتب في ساعةٍ متأخّرة ولا يكسب الكثير. وكان لي شقيقتان.

أمّا أمّي فكانت تألْم كثيراً من العوز الذي نعيشه، وغالباً ما كانت تجد كلمات لاذعة تقولها لزوجها ومَلامات مبطّنة وماكرة.

فكانت تصدر عن الرّجل المسكين عندئذٍ إيماءة تُحزنني. كان يمرّر يده المفتوحة على جبينه كما لو ليمسح عرَقاً غير موجود، ولا يجيب بشيء. فكنتُ أشعر بألمه العاجز. كنّا نقتصد في كلّ شيء. ولا نقبل دعوةً إلى عشاء حتّى لا يكون علينا ردّها. كنّا نشتري المؤونة المخفّضة الأسعار وما يتأخّر بيعه في الدّكاكين. وكانت أختاي تخيطان أثوابهما بنفسيهما وتخوضان نقاشات طويلة حول سِعر شرائط التّزيين التي يكلّف المتر الواحد منها خمسة عشر سنْتاً لا غير. أمّا طعام كلّ يوم فكان يتألّف من حساء البقر الذي يرافق كلّ ما نأكله. فهذا على ما يبدو صحّيّ ومُريح. ولكنّني كنتُ أفضّل شيئاً آخر.

وكانوا يحملون عليّ حملاتٍ شعواء بسبب الأزرار الضّائعة والسّراويل الممزّقة.

ومع ذلك، كنّا نذهب كلّ يومِ أحدٍ لنقوم بجولةٍ على الرّصيف البحريّ مرتدين أبهى حُلَلنا. مرتدياً بذلته «الرّدينغوت»[1] ومعتمراً قبّعة كبيرة وحاملاً قفّازين، كان أبي يقدّم ذراعه لوالدتي المتزيّنة مثل سفينةٍ في يوم عيد. أمّا شقيقتاي فتكونان جاهزتين قبل الآخرين وتنتظران إشارة الانطلاق. ولكن في اللّحظة

---

(1) «الرّدينغوت»: سترة واسعة شبيهة بالمعطف، كان ارتداؤها رائجاً في أوروبا في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر (المترجمة).

الأخيرة كانوا يجدون دوماً بقعةً منسيّة على سترة ربّ العائلة تجدر إزالتها بسرعة شديدة بواسطة خرقةٍ مبلّلة بالبنزين.

ومن دون أن يخلع أبي قبّعته الكبيرة عن رأسه، كان ينتظر، يستره قميصه وحده، انتهاء العمليّة، في حين تجهد أمّي في الانتهاء منها بسرعة وقد عدّلت نظّاريتها وخلعت قفّازيها حتّى لا تفسدهما.

وكنّا ننطلق بأبّهة. شقيقتاي تفتتحان المسيرة تتأبّط إحداهما ذراع الأخرى. كانتا في سنّ الزّواج، وكان ذلك مدعاةً لإظهاره في المدينة. أمّا أنا فكنتُ أقف إلى يسار أمّي، وأبي إلى يمينها. ولا أزال أذكر هيئة والدَيَّ المسكينين المفخّمة في نزهات الأحد تلك، وجمود ملامحهما وصرامة مشيتهما. كانا يتقدّمان بخطواتٍ رصينة، مستقيمَي الجسم ومتصلّبَي السّاقين كما لو أنّ مسألةً ذات أهميّة قصوى كانت تعتمد على هيئتهما.

وفي كلّ أحدٍ كان أبي، ما إن يلمح السّفن الكبيرة العائدة من بلدان بعيدة مجهولة حتّى يتلفّظ دوماً بالكلمات ذاتها:

- ستكون مفاجأة رائعة لو كان جول في واحدة منها!

وقد كان عمّي جول، شقيق أبي، أمل العائلة الوحيد بعدما كان مروِّعها. منذ طفولتي وأنا أسمعهم يتحدّثون عنه، وكان يبدو لي أنّني سأتعرّف إليه من النّظرة الأولى لفرط ما باتت

صورته مألوفة لديّ. كنتُ أعرف تفاصيل حياته كلّها حتّى يوم رحيله إلى أميركا، رغم أنّ تلك الفترة من حياته لم تكن تُذكَر إلاّ بصوتٍ خفيض.

كان على ما يبدو قد أساء التّصرّف، أي أنّه بدّد بعض المال، وهو ما يُعَدّ لدى العوائل الفقيرة الجُرمَ الأكبر. لدى الأثرياء، يُعَدّ من يلهو شخصاً «يرتكب حماقات». يُسمّونه مبتسمين «محبّ الأعياد». أمّا لدى المعوزين، فإنّ شابّاً يرغم أبوَيه على الاقتطاع من رأسمالهما يصبح أنموذجاً سيّئاً، ويُعتَبر نذلاً!

وهذا التّمييز صائب رغم أنّ الفعلة واحدة، فالنّتائج وحدها تحدّد مدى جسامة الأفعال.

باختصار، قام عمّي جول بإفقار الإرث الذي كان يعتمد عليه أبي وذلك بعدما بدّد حصّته هو حتّى آخر فلس.

فأرسلوه إلى أميركا، كما كان يحصل في ذلك الزّمن، على متن باخرة تجاريّة منطلقة من الـهافْر إلى نيويورك.

وما إن اصبح هناك حتّى استقرّ كبائع لا أدري لأيّة سلعة، وقد كتب لهم قائلاً إنّه يجني بعض المال وإنّه يأمل أن يتمكّن من تعويض أبي عن الضّرر الذي كان قد ألحقه به.

أثّرت هذه الرّسالة في العائلة تأثيراً عميقاً. وفجأةً صار جول، الذي لم يكن يساوي شيئاً، رجلاً شريفاً وشجاعاً، رجلاً من آل

دافرانش بحقّ، نزيهاً مثل كلّ أفراد عائلة دافرانش.

إلى ذلك، أعلمَنا قبطانٌ بأنّ عمّي استأجر دكّاناً كبيراً وبأنّه يقوم بتجارة مربحة.

وبعد سنتين وصلتنا منه رسالة ثانية يقول فيها: «عزيزي فيليب. أكتب لك حتّى لا تقلق على صحّتي فهي جيّدة. الأعمال كذلك تسير بشكلٍ جيّد. أسافر غداً في رحلةٍ طويلة إلى أميركا الجنوبيّة. قد تمرّ سنوات عديدة قبل أن أتمكّن من إطلاعك على أحوالي. فلا تقلق إن لم أكتب لك. سأعود إلى الـهافر ما إن أجمع ثروة. آمل ألاّ يكون هذا طويلاً، فنعيش سعداء معاً...».

وباتت هذه الرّسالة بمثابة إنجيل للعائلة. فكانت تُقرأ في كلّ مناسبة وتُعرض على الجميع.

وطوال عشر سنوات، لم يُعلِمنا عمّي جول بأخباره. ولكنّ آمال أبي كانت تكبر كلّما تقدّم الزّمن. وغالباً ما كانت أمّي تقول:

- عندما يعود هذا الطّيّب جول سيتغيّر وضعنا. ها إنّ واحداً قد عرف كيف ينْفذ بجِلده!

وكلّ يوم أحد، كان أبي ينظر إلى البواخر السّوداء الكبيرة وهي قادمة من الأفق نافثةً في السّماء خطوطاً أفعوانيّة من الدّخان، ويُعيد عبارته التي لا تتبدّل:

- ستكون مفاجأة رائعة لو كان جول في واحدة منها!

وكنّا نكاد ننتظر أن نراه يلوّح بمنديله ويهتف:

- يا فيليب!

كم من المشاريع أعدّتها العائلة استناداً لهذه العودة المؤكّدة! حتّى أنّه كان مقرّراً شراء منزل ريفيّ صغير قرب إينغوفيل بمال العمّ جول. وأكاد أجزم أنّ أبي قد باشرَ من قبلُ المفاوضات بهذا الشّأن.

كانت كبرى شقيقتيّ تبلغ آنئذٍ ثمانية وعشرين عاماً. والأخرى ستّة وعشرين. وما كانتا قد تزوّجتا بعد، وكان هذا مصدر أسىً كبير للجميع.

إلى أن تقدّم أخيراً شابّ طلبَ يد الثّانية. هو موظّفٌ مُحترم غير ثريّ. ولطالما كنتُ مقتنعاً بأنّ رسالة العمّ جول التي عُرضت ذات مساء قد وضعت حدّاً لتردّد الشّابّ وساهمت في حسم قراره.

قرارٌ سارعوا إلى قبوله واتفّقوا على أن تقوم العائلة بُعيدَ الزّواج مجتمعةً برحلةٍ صغيرة إلى جيرسي.

جيرسي هي مكان السّفر الأمثل للفقراء. فهي غير بعيدة، إذ يكفي عبور البحر على متن باخرة لنلفي أنفسنا على أرضٍ غريبة، إذ إنّ هذه الجزيرة الصّغيرة ملكٌ للإنجليز. وبالتّالي، فبوسع فرنسيّ بعدَ ساعتَي إبحار أن يمتّع نفسه برؤية شعبٍ مُجاور له

ودراسة التقاليد، المُغضِبة والحقّ يُقال، تقاليد هذه الجزيرة التي يظلّلها العلَم البريطانيّ كما يقول النّاس بلغتهم البسيطة.

فصارت هذه الرّحلة إلى جيرسي شاغلنا الأوحد ورجاءنا وحلمنا في كلّ لحظة.

وانطلقنا أخيراً. أرى ذلك كما لو أنّه حدث أمس. الباخرة التي تُحمّى عند رصيف غرانفيل البحريّ، وأبي الذي يراقب مذعوراً عمليّة شحن حقائبنا الثّلاث. ووالدتي القلقة وقد تأبّطت ذراع شقيقتي العزباء التي كانت تبدو ضائعة منذ زواج الأخرى، مثل دجاجة صغيرة مهجورة. ووراءنا العريسان، وقد بقيا في الخلف، ما جعلني أُكثِر من الالتفات إلى الوراء.

صفّرت السّفينة. وها نحن على متنها. وغادرت الرّصيف البحريّ وراحت تبتعد على مياهٍ مستوية مثل طاولةٍ من المرمر الأخضر. وكنّا نرقب الضفاف وهي تلوذ بالفرار، سعداء وفخورين مثل كلّ من لا يسافرون كثيراً.

وكان أبي ينفخ كرشه تحت سترته الرّسميّة التي كنّا قد أزلنا عنها بعنايةٍ كلّ البقع في ذلك الصّباح بالذّات، وكان ينشر حوله رائحة البنزين الخاصّة بأيّام النّزهات والتي كانت تجعلني أميّز أيّام الآحاد.

وفجأةً، لمح سيّدتين أنيقتين يقدّم لهما رجلان محاراً. فيما كان

بحّار عجوز رثّ الثّياب يفتح الأصداف بضربة سكّينٍ ويُعطيها للرّجلين اللّذين يقدّمانها بدورهما إلى السيّدتين. كانتا تأكلان بطريقةٍ مُرهفة فتُمسكان بالأصداف بمنديلٍ ناعمٍ وتقرّبان فاهَيهما حتّى لا يتلطّخ ثوباهما. ثمّ تشربان السّائل بحركة صغيرة وسريعة وترميان بالصّدفة إلى البحر.

سُحر أبي على الأرجح بهذا الفعل الأنيق الذي يقضي بأكل المحار على سفينةٍ مُبحرة. وجدَ ذلك أنيقاً ومُرهَفاً وسامياً، فاقترب من أمّي وأختيَّ سائلاً:

- أترغبنَ في أن أقدّم لكنّ بعض المحار؟

كانت أمّي متردّدة بسبب ما يترتّب على ذلك من إنفاق، ولكنّ شقيقتيّ قبلَتا فوراً. فقالت أمّي بنبرةِ امتعاض:

- أخشى أن أُصاب بألمٍ في معدتي. قدّم ذلك للبنتين وحدهما، ولكن من دون إسراف حتّى لا تمرضا.

ثمّ التفتت نحوي وقالت:

- أمّا جوزيف، فلا حاجة له بذلك. فالتّدليل مضرّ بالصّبيان.

فبقيتُ إلى جانب أمّي وقد وجدتُ هذا التّمييز بين الجنسين مُجحفاً. وكنتُ أتابع بعينيّ أبي وهو يقود بأبّهةٍ ابنتيه وصهره صوب البحّار العجوز الرثّ الثّياب.

كانت السيّدتان قد غادرَتا للتوّ، وكان أبي يشرح لشقيقتَيّ

كيفيّة تناول المحار وتلافي انسكاب سائله. حتّى أنّه شاء أن يكون لهما قدوةً فتناول محارةً. وفيما هو يحاول تقليد السيّدتين أوقع السّائل كلّه فوراً على سترته وسمعتُ أمّي تتمتم:

- من الأفضل له أن يلزم الهدوء.

ولكن فجأةً بدا لي أبي قلقاً. ابتعد بضع خطوات ونظر بتركيز إلى أفراد عائلته المتدافعين حول فاتح المحار ثمّ اتّجه بغتةً صوبنا. بدا لي شديد الشّحوب وفي عينيه نظرة غريبة. قال لأمّي بصوت خفيض:

- إنّه لأمرٌ عجيب، كم أنّ هذا الرّجل الذي يفتح المحار يشبه جول!

فسألته أمّي منذهلة:

- أيّ جول؟...

فتابع أبي:

- شقيقي... طبعاً... لو لم أكن أعلم أنّه في وضعٍ جيّد في أميركا لخلتُ أنّه هو.

فتمتمت أمّي مذعورة:

- أنت مجنون! بما أنّك تعرف تماماً أنّه ليس هو، فلمَ تتفوّه بهذه الحماقات؟

- اذهبي يا كلاريس لرؤيته. أفضّل أن تتأكّدي من ذلك

بنفسك وبعينيك.

فنهضت ومضت لتنضمّ إلى ابنتيها. وأنا أيضاً كنتُ أنظر إلى الرّجل. كان عجوزاً، قذراً، تكسوه التّجاعيد ولا يرفع نظره عمّا يقوم به.

وعادت أمّي. فانتبهتُ إلى أنّها كانت ترتجف. وقالت بسرعة:

- أعتقد أنّه هو. اذهبْ واستعلمْ من القبطان. ولكن كن حذراً حتّى لا يكون علينا الآن أن نأخذ هذا الشّقيّ على عاتقنا!

وابتعد أبي ولكنّني تبعته. كنتُ متأثّراً بشكلٍ غريب.

كان القبطان، وهو رجلٌ طويل ونحيف وذو سالفَين طويلين، يتمشّى على جسر السّفينة متّخذاً هيئةً متعاظمة كما لو أنّه يقود باخرة بريد أمريكا الجنوبيّة.

فاستوقفه أبي بصورة احتفاليّة وراح يسأله عن مهنته مبالِغاً في الإطراء عليه:

ما عدد سكّان جيرسي؟ وما هي منتوجاتها؟ وما طبيعة سكّانها؟ وما هي عاداتهم؟ وتقاليدهم؟ وطبيعة الأرض، إلخ.، إلخ.

حتّى لَيُخيّل للسّامع أنّه كان يتحدّث عن الولايات المتّحدة الأميركيّة على أقلّ تقدير.

ثمّ وصل الحديث إلى السّفينة التي نحن على متنها،

الـ«إكسبرس»، ثمّ إلى طاقمها. وأخيراً سأله أبي بصوتٍ مرتبك:

- لديكم هنا فاتح محار عجوز يبدو مثيراً للاهتمام. أتعرف عنه شيئاً؟

فما كان من القبطان الذي كان هذا الحديث قد بدأ يُغيظه إلاّ أن أجاب بنبرةٍ جافّة:

- إنّه متشرّد فرنسيّ وجدتُه في أميركا في العام الماضي وأعدتُه إلى البلاد. يبدو أنّ له أقارب في منطقة الـهافر ولكنّه لا يريد العودة إليهم لأنّه يدين لهم بمبلغ من المال. اسمه جول... جول دارمانش أو دارفانش، شيء من هذا القبيل. يبدو أنّه كان ثريّاً هناك في وقتٍ من الأوقات، ولكن انظر الحالة التي وصل إليها الآن.

وإذا بوالدي الذي أصابه الشّحوب وشعر بالاختناق يقول وعيناه شاردتان:

- آه، آه، جيّد جدّاً... ممتاز... هذا لا يفاجئني... أشكرك كثيراً يا حضرة القبطان.

قال ذلك وابتعد في حين كان البحّار ينظر إليه باندهاش.

ورجع إلى أمّي مكفهرّ الأسارير إلى درجة جعلتْها تقول له:

- اجلس. سينتبه النّاس.

فوقع على المقعد وهو يردّد متلعثماً:

- إنّه هو، هو بذاته!

ثمّ سألها:

- ماذا نفعل؟...

فأجابت فوراً.

- ينبغي إبعاد البنتين عنه. وبما أنّ جوزيف قد عرف كلّ شيء، فسيذهب لإحضارهما. وحذار خصوصاً من أن يفطن صهرنا إلى شيء.

كان أبي يبدو مصعوقاً. وتمتمَ:

- يا للكارثة!

فأضافت أمّي وقد انتابها الغضب فجأةً:

- لطالما خامرني الظّنّ في أنّ هذا اللّصّ لن يفعل شيئاً وأنّه سيقع على عاتقنا مرّة أخرى! يستحيل الاعتماد على واحد من آل دافرانش!...

وإذا بوالدي يمرّر يده على جبينه كما كان يفعل لدى سماعه ملامات زوجته.

وأضافت هذه الأخيرة:

- والآن أعطِ جوزيف المال ليدفع ثمن المحار. لا ينقص إلاّ أن يتعرّف إلينا هذا المتسوّل. سيكون للأمر أثر جميل على السّفينة. فلنذهب إلى الطّرف الآخر وحاذر من أن يقترب هذا الرّجل منّا!

وقامت، ثمّ ابتعدا بعدما أعطياني قطعة نقديّة من فئة المائة فلس.

كانت شقيقتاي في انتظار أبي ففاجأتْهما رؤيتي. فقلتُ إنّ أمّي شعرت بتوعّك بسيط بسبب البحر وسألتُ فاتح المحار:

- بكم ندين لك يا سيّدي؟

وكنتُ أرغب في قول: «يا عمّي».

فأجاب:

- بفرنكين ونصف فرنك.

فناولته فلوسي المائة وأرجع لي الباقي.

كنتُ أنظر إلى يده، يد بحّار فقيرة تكسوها التّجاعيد، ثمّ نظرتُ إلى وجهه، وجه عجوز وبائس وحزين ومُنهك، وأنا أفكّر:

«هذا عمّي، شقيق أبي، عمّي!».

وتركتُ له عشرة فلوس بمثابة بقشيش. فشكرني قائلاً:

- فليباركك الله، يا سيّدي الشّابّ!

قال ذلك بلكنة فقيرٍ يتلقّى الصّدقة. ففكّرتُ أنّه لا بدّ قد تسوّل هناك!

وكانت شقيقتاي تتأمّلانني وقد أدهشهما كرمي.

وعندما أرجعتُ الفرنكين لأبي، سألتني أمّي متفاجئة:

- وهل كلّف ذلك ثلاثة فرنكات؟... هذا مستحيل.

- أعطيتُ عشرة سنْتات بمثابة بقشيش.

فارتعدت أمّي ونظرت إلى عينيّ مباشرةً وقالت:

- أنت مجنون! كيف تعطي عشرة سنْتات لهذا الرّجل، هذا المتسوّل!...

وأسكتتها نظرة من أبي يشير فيها إلى صهره.

ثمّ سكت الجميع.

أمامنا، في الأفق، كان خيالٌ بنفسجيّ يبدو كأنّه يخرج من البحر. كانت تلك هي جيرسي.

وعندما اقتربنا من الرّصيف البحريّ، خالجتني رغبة عنيفة في رؤية عمّي جول مرّة أخرى، رغبة في أن أقترب منه وأقول له كلمة حنان ومؤاساة.

ولكن بما أنّ أحداً لم يعد يأكل المحار، كان قد اختفى، نزل ذلك البائس على الأرجح إلى قعر السّفينة القذر حيث يعيش.

وعدنا على متن سفينة سان-مالو حتّى لا نلتقي به. فقد كان القلق يتـأكّل والدتي.

و بعد ذلك اليوم لم أرَ عمّي، شقيق أبي!

ولذا تراني أحياناً أنْقد المتشرّدين مائة فلس.

7 آب/ أغسطس 1883

دُني

- إلى ليون شابرون

A Léon Chapron

I

فضّ السيّد مارامبو مظروف الرّسالة التي سلّمه إيّاها خادمه دُني وابتسم.

دُني رجلٌ ربعةٌ وبشوش يعمل في المنزل منذ نحو عشرين عاماً ويُؤتى على ذكره في كلّ المنطقة بوصفه الأنموذج الأمثل للخدم.

سألَ دُني:

- يبدو سيّدي مسروراً. هل بلغ سيّدي خبرٌ جيّد؟

لم يكن مارامبو ثريّاً. فهو صيدليّ ريفيّ متقاعد، وعازب، يعيش من عائد بسيط تعب في جنْيه وهو يبيع العقاقير للقرويّين.

فأجاب:

- أجل يا بنيّ. إنّ السيّد مالوا قد تراجع أمام المحاكمة التي هدّدتُه بسوقه إليها، وغداً يصل إليَّ مالي. إنّ خمسة آلاف فرنك لا تضير إذا أُضيفت إلى خزنةِ شيخٍ عازب.

وفرك مارامبو يداً بيد. فقد كان رجلاً ذي طبعٍ قانع، أكثر ميلاً للحزن منه للمرح، وعاجزاً عن القيام بمجهودٍ مطوّل، وكان على شيء من الإهمال في ما يتعلّق بأعماله.

كان بوسعه يقيناً أن يحقّق رفاهية أكثر لو كان أفاد من وفاة زملاء له مستقرّين في مراكز مهمّة، وذهب ليشْغل أماكنهم الشّاغرة ويستأثر بزبائنهم. ولكنّ متاعب الانتقال وفكرة كلّ الإجراءات التي سيكون عليه إنجازها لطالما حالت دون أن يقوم بذلك. فكان يكتفي بالقول بعد يومين من التّفكير:

- كفى! سأفعل ذلك في المرّة القادمة. لن أخسر شيئاً بالانتظار. وربّما وجدتُ شيئاً أفضل.

أمّا دُني فكان بالعكس يحثّ سيّده على الإقدام. فقد كان ذا طبعٍ نشِط ولا يني يكرّر:

- أوه! من جهتي، لو حصلتُ على أدنى رأسمالٍ لجمعتُ ثروة. إنّ ألف فرنك ستكفيني لتصير لي تجارتي.

وكان مارامبو يبتسم من دون أن يُجيب ويخرج إلى حديقته الصّغيرة حيث يروح يتمشّى، عاقداً يديه خلف ظهره وهو يحلم.

ظلّ دُني يرفع عقيرته بالغناء طيلة النّهار، مثل رجلٍ مبتهج، بترانيمَ وأغانٍ شعبيّة. حتّى أنّه أبدى نشاطاً غير مألوفٍ، إذ راح ينظّف كلّ شبابيك المنزل، ماسحاً الزّجاج بحيويّة وهو يُنشد أغنياته بملء صوته.

فقال له مارامبو أكثر من مرّة مبتسماً، وقد أدهشته همّته:

- إذا تابعتَ العمل بهذه الشّاكلة يا بنيّ، فلن يبقى لك ما تقوم به غداً.

وفي اليوم التّالي، في حوالى التّاسعة صباحاً، سلّم ساعي البريد دُني أربع رسائل لسيّده بينها واحدة شديدة الثّقل. وسرعان ما أقفل مارامبو على نفسه في غرفته حتّى العصر. ثمّ عهد إلى خادمه بأربع رسائل ليحملها إلى البريد. إحداها موجّهة إلى السيّد مالوا، وكانت على الأرجح وصْلاً بتسلّم المبلغ.

لم يطرح دُني على سيّده أيّ سؤال. وفي ذلك اليوم بدا دُني حزيناً ومتجهّماً بقدر ما كان فرحاً في اليوم السّابق.

وحلّ المساء. فخلد مارامبو إلى النّوم في ساعته المعتادة وغفا. ولكنّ ضجيجاً غريباً أيقظه. فجلس فوراً في سريره وأصاخ السّمع. ولكنّ باب حجرته فُتح فجأةً وظهر دُني حاملاً شمعةً في يد وسكّيناً في الأخرى فيما عيناه جاحظتان وثابتتان، وخدّاه وشفتاه متقلّصة كمَن تختلج فيه مشاعر رهيبة، وكان شاحباً إلى

درجة يبدو فيها كمثل عائدٍ من الموت.

ذاهلاً، خال مارامبو أنّ دُني كان مُسرنِماً[1]، وكان على وشك النّهوض والإسراع نحوه وإذا بالخادم ينفخ على الشّمعة وهو ينقضّ على السّرير. فمدّ سيّده يديه إلى الأمام لتلقّي الصّدمة التي قلبته على ظهره. وكان يحاول الإمساك بيدَي خادمه وهو يفكّر أنّه قد أصابه مسّ من الجنون، ليتفادى الضّربات المتسارعة التي كان الآخر ينهال بها عليه.

فأُصيبَ مرّةً أولى بالسّكّين في كتفه، ومرّة ثانية في جبينه، ومرّة ثالثة في صدره. كان يقاوم بجنون محرّكاً يديه في العتمة وموجّهاً رفسات وهو يصرخ:

- دُني! دُني! أأنتَ مجنون، يا دُني؟

ولكنّ هذا الأخير استمرّ يستشرس ويضرب لاهثاً، تُبعده تارةً رفسة وطوراً لكمة، ولكنّه سرعان ما يعود بكامل غضبه. أُصيب السيّد مارامبو من جديد مرّتين في ساقه ومرّةً في بطنه. ولكنْ فجأةً لمعت في ذهنه فكرةٌ سريعة فجعل يصرخ:

- كفاك الآن، كفى يا دُني، فأنا لم أتلقَّ مالي بعد.

فتوقّف الرّجل على الفور، وكان سيّده يسمع في العتمة صفير أنفاسه.

(1) المُسرنِم إدغام لعبارة «السّائر في نومه» (المترجمة).

وسرعان ما تابع مارامبو بالقول:

- لم أتلقَّ شيئاً. فالسيّد مالوا تراجع عن وعده وستقام المحاكمة. ولذا جعلتكَ تحمل الرّسائل إلى البريد. اقرأ بالأحرى تلك الموجودة على مكتبي.

وبشقّ النّفس، تناول عيدان الثّقاب عن الطّاولة إلى جانب السّرير وأضاء شمعته.

كان مغطّىً بالدّماء. وكانت لطخات حارقة قد خضّبت الجدار. الشّراشف والسّتائر، كلّ شيءٍ كان أحمر. وكان دُني، المدمّى بدوره من رأسه حتّى أخمص قدميه، واقفاً في وسط الغرفة لا يتحرّك.

ولمّا رأى كلّ هذا، ظنّ مارامبو نفسه ميتاً ففقد وعيه.

ثمّ استعاد وعيه مع انبلاج النّهار. لزمه بعض الوقت قبل أن يصفو ذهنه فيفهم ويتذكّر. ولكن فجأةً عادت إليه ذكرى العدوان وجراحه، واجتاحه خوف عارم جعله يغمض عينيه حتّى لا يرى شيئاً. وبعد بضع دقائق هدأ رعبه وراح يفكّر. بما أنّه لم يمت فوراً، فهذا يعني أنّه يقدر أن ينجو. كان يشعر بالوهن، بوهنٍ شديد ولكن بلا ألمٍ حادّ، رغم إحساسه في مواضع عدّة من جسده بانزعاج ملموس أشبه ما يكون بقرصات. كان يحسّ أيضاً بأنّه متجمّد من البرد ومبلول بكامله ومشدود كما لو كان

محاطاً بأقمطة. ففكّر أنّ ذلك البلل كان آتياً من الدم المُراق، وراح يرتعد قلقاً للفكرة الفظيعة، فكرة السّائل الأحمر الذي كان قد خرج من عروقه وكان يغطّي سريره. وكانت فكرة أن يرى مجدّداً ذلك المشهد الفظيع تجعله يضطرب، فكان يُبقي على عينيه مغمضتين بقوّة كما لو كانتا ستنفتحان رغماً عنه.

ماذا حلّ بِدُني؟ قد يكون لاذَ بأذيال الفرار.

ولكن ما يفعل الآن، هوَ، مارامبو؟ أينهض؟ يطلب النّجدة؟ ولكن إن قام بحركةٍ واحدة فستتفتّق جراحه مجدّداً بشكلٍ أكيدٍ، فيخرّ ميتاً وقد فرغ من دمه.

وفجأةً سمع باب غرفته يُفتح. كاد قلبه أن يتوقّف. كان ذلك هو دُني وقد عاد بالتّأكيد للإجهاز عليه. فحبس أنفاسه ليظنّ القاتل أنّ الأمر انتهى وأنّه قد أتمّ عمله.

شعرَ بالشّرشف يُرفع وبيدٍ تجسّ بطنه. وإذا بألمٍ حادّ قرب وركيه يجعله ينتفض. كان أحدهم يغسله، بروِيّة، بالماء الصّافي. وهذا يعني أنّ الجريمة قد اكُتشفت وأنّ ثمّة من يعالجه ويُنقذه. فاجتاحه فرحٌ عظيم، ولكنّه، تحوّطاً، لم يشأ أن يكشف عن أنّه استعاد وعيه، ففتح قليلاً عيناً، عيناً واحدة، وباحتراسٍ شديد.

فرأى دُني واقفاً إلى جانبه، دُني بذاته! رحماك يا ربّ! فسارع إلى إغماض عينه مجدّداً.

دُني! ولكن ما كان يفعل! ماذا يريد؟ أيّ مشروعٍ فظيع لا يزال يخطّط له؟

ماذا كان يفعل؟ هو بالتّأكيد يغسله ليمحو الآثار! وسيقوم بدفنه الآن في الحديقة على عمق عشر أقدام تحت الأرض حتّى لا يعثر عليه أحد! أو ربّما في القبو تحت قناني النّبيذ الفاخر.

فراح مارامبو يرتعش بقوّة بحيث راحت كلّ أعضائه ترتجف.

وكان يقول لنفسه: «أنا هالك، هالك!». وكان يشدّ بيأسٍ جفنيه حتّى لا يرى طعنة السّكّين الأخيرة تنهال عليه. ولكنّها لم تأتِ. وكان دُني يرفعه ويربطه بنسيج. ثمّ راح يضمّد جرح ساقه بعناية، مثلما تعلّم أن يفعل عندما كان سيّده صيدليّاً.

ولخبيرٍ بالمهنة مثله، لم يعد من مجالٍ للشّكّ: فخادمه، بعدما سعى لقتله، يحاول الآن إنقاذه.

وإذا بمارامبو يُعطي خادمه هذه النّصيحة العمليّة بصوتٍ متحشرج:

- استخدم للغسل والتّضميد الماء الممزوج بالقطران المعالَج بالصّابونِين.

فأجاب دُني:

- هذا ما أقوم به يا سيّدي.

ففتح مارامبو عينيه الاثنتين.

لم يعد من آثار دماء لا على السّرير ولا في الغرفة لا ولا على القاتل. وكان المصاب ممدّداً على شراشف بيضاء تماماً.

فتبادل الرّجلان النّظرات.

وفي النّهاية قال مارامبو برقّة:

- لقد ارتكبتَ جريمة كبيرة.

فأجاب دُني:

- والآن أنا بصدد التكفير عنها يا سيّدي. إن امتنعتَ عن التّبليغ عنّي فسأخدمك بوفاءٍ مثلما فعلتُ في الماضي.

لم تكن اللّحظة ملائمة لإغضاب الخادم، فقال مارامبو وهو يغمض عينيه:

- أقسم لك بألاّ أبلّغ عنك.

II

وأنقذ دُني سيّده. أمضى النّهارات واللّيالي ساهراً، لا يفارق البتّة غرفة المريض. حضّر له الأدوية والمغليّات والجُروع، وهو يجسّ نبضه ويعدّ الخفقات بقلقٍ، ويعالجه بمهارةِ ممرّض وتفاني ابن.

وفي كلّ لحظة كان يسأله:

- والآن! كيف حالك يا سيّدي؟

فكان مارامبو يُجيب بصوتٍ ضعيف:

- أفضل بعض الشّيء يا بنيّ، أشكرك.

وعندما كان الجريح يستيقظ ليلاً، كان يرى غالباً حارسه يبكي في كرسيّه ويمسح دموعه بصمت.

لم يحصل الصيدليّ السّابق يوماً على عنايةٍ وتدليل وملاطفةٍ كتلك. وفي البداية قال لنفسه:

- ما إن أُشفى حتّى أتخلّص من هذا الشّقيّ.

كان يتماثل للشّفاء ولكنّه كان يؤجّل يوماً بعد يوم لحظة التّخلّص من قاتله. وكان يفكّر أنْ لا أحد مثله سيعامله بهذا القدر من المراعاة والاهتمام وأنّه كان مسيطراً على ذلك الصّبيّ بفعل خوف هذا الأخير. وأنذَره بأنّه أودع لدى كاتب عدل وصيّةً يكشف فيها أمره للعدالة في حالِ وقعَ أيّ حادث جديد.

وبَدا له أنّ هذا التّحوّط كان يحميه في المستقبل من كلّ عدوان جديد، وكان يتساءل إن لم تكن دواعي الحيطة تفرض عليه أن يُبقي على ذلك الرّجل إلى جانبه لمراقبته بانتباه.

وكما كان يحصل في الماضي عندما يتردّد في شراء إحدى الصيدليّات الأكثر أهميّة، كان عاجزاً عن اتّخاذ قرار بهذا الشّأن.

وكان يقول لنفسه:

- سيأتي الوقت المناسب يوماً ما.

واستمرّ دُني بالتّصرّف كخادمٍ مثاليّ.

كان مارامبو قد شُفيَ، فأبقى عليه معه.

ولكن ذات صباح، ولمّا كان يُنهي فطوره، سمع فجأةً جلبة قويّة في المطبخ. فهرع ووجد دُني يحاول التّخلّص من قبضة شرطيّين اثنين. وكان العريف يكتب بوقارٍ ملاحظاتٍ على دفتره.

وما إن رأى الخادم سيّده حتّى راح ينتحب صارخاً:

- لقد وشيتَ بي يا سيّدي، وهذا ليس جيّداً بعد ما وعدتني به. إنّك تنكث بوعدك يا سيّد مارامبو. وهذا سيّئ، هذا سيّئ!...

فرفع مارامبو يده مذهولاً وحزيناً لأن يُساء به الظنّ، وقال:

- أقسم لك أمام الله يا بنيّ بأنّني لم أشِ بك. أنا أجهل تماماً كيف عرف حضرة الشّرطيّين بمحاولتك قتلي.

فانتفض الشّرطيّ:

- أتقول إنّه أراد قتلك يا سيّد مارامبو؟

فأجاب الصيدليّ ذاهلاً:

- أجل... ولكنّني لم أشِ به... لم أقل شيئاً... أقسم أنّني لم أقلْ شيئاً... فقد كان يخدمني بشكل جيّد جدّاً منذ ذلك الحين...

فقال الشّرطيّ بصرامة:

- أخذتُ عِلماً ببلاغك. إنّ العدالة سترحّب بهذا الدّافع الجديد الذي كانت تجهله يا سيّد مارامبو. أنا موكَل بتوقيف

خادمك بتهمة سرقة بطّتين أخذَهما خلسةً من عند السيّد دوهاميل، وثمّة شهودٌ على ذلك. أسألك المعذرة يا سيّد مارامبو. سأعمل على إيصال بلاغك.

ثمّ التفت إلى رجاله وأمرهم:

- هيّا، فلننطلقْ!

وقاد الشّرطيّان دُني.

III

كان المحامي قد قدّم دفاعه معلّلاً ما حدث بالجنون، ومُسنداً الجريمتين إحداهما إلى الأخرى لتعزيز حجَجه. وكان قد أثبت بوضوح أنّ سرقة البطّتين وطعنات السّكّين الثّماني الموجَّهة لمارامبو تأتّت جميعاً من الحالة العقليّة ذاتها. وحلّل بذكاءٍ شديد كلّ ما يترتّب عن حالة الاستلاب العقليّ العرَضيّة تلك، والتي ستزول بلا أدنى شكّ بعد علاجٍ لبضعة أشهر في مَشفىً ممتاز. كما تحدّث بعباراتٍ حماسيّة عن الإخلاص الدّائم الذي أبداه الخادم النّزيه وعن العناية الفريدة التي أحاط بها سيّده الذي طعنه هو في لحظة طيش.

أصابت هذه الذّكريات مارامبو في الصميم فشعر بعينيه تتبلّلان بالدّمع.

وانتبه المحامي إلى ذلك، فمدّ ذراعيه بحركةٍ واسعة باسطاً

كمّيه الأسودين الطّويلين مثل جناحَي خفّاش. وبصوتٍ متهدّج هتف:

- انظروا، انظروا، انظروا يا حضرات المحلّفين، انظروا إلى هذه الدّموع. ماذا يسعني القول عن موكّلي بعد الآن؟ أيّ خطابٍ وأيّة حجّة وأيّ منطق يمكن أن يساوي دموع سيّده هذه. إنّها لتنطق بأقوى منّي، وبأقوى من القانون. إنّها تصرخ: «الغفران لمن فقد رشده لساعةٍ من الزّمن!». إنّها تلتمس الرّأفة، إنّها تغفر، إنّها تبارِك!

ثمّ سكت وجلس.

فالتفت القاضي صوب مارامبو الذي كانت شهادته ممتازة بحقّ خادمه وسأله:

- ولكن يا سيّدي، حتّى لو افترضنا أنك اعتبرت هذا الرّجل مجنوناً، فإنّ هذا لا يفسّر إبقاءه لديك. فجنونه المفترض لا يعني أنّه أقلّ خطورة.

فأجاب مارامبو وهو يمسح عينيه:

- وماذا أفعل يا سيّدي القاضي؟، فمن الصّعب جدّاً إيجاد خادمٍ في هذه الأيّام... ما كنت سأجد أفضل منه.

فبُرّئ دُني ووُضِعَ، على حساب سيّده، في مصحّ للمجانين.

28 حزيران/يونيو 1883

الخوف

– إلى ج. ك. هويسمان

A J.-K. Huysmans

بعد العشاء عاودنا الصّعود إلى سطح المركب. أمامنا تمتدّ صفحة مياه المتوسّط لا تعكّرها رعشة، فيما يُضيئها قمرٌ بدرٌ هادئ. كانت السّفينة الضّخمة تتقدّم لافظةً إلى السّماء الملأى نجوماً خطّاً أفعوانيّاً كبيراً من الدّخان الأسود. وخلفنا، كانت المياه الشّديدة البياض، وقد حرّكها العبور السّريع للمركب الثّقيل وخفَقَتْها مروحته، ترغي وتبدو كأنّها تتلوّى وتقلب كمّاً من الضّياء هائلاً أشبه ما يكون بغليان ضوء القمر.

وكنّا هناك، ستّة أو ثمانية، صامتين، متأمّلين، وعيوننا شاخصة إلى أفريقيا البعيدة حيث نحن متّجهون. وإذا بالقبطان الذي كان

يدخّن بيننا سيجاراً يستأنف فجأةً المحاورة التي كانت معقودة أثناء العشاء.

- أجل، لقد خفتُ في ذلك اليوم. بقيَت سفينتي ستّ ساعات وتلك الصّخرة في جوفها تتلاعب بها الأمواج. ولحسن الحظّ أنّ ناقلة فحمٍ إنجليزيّة لمحتنا وآوَتْنا على متنها.

وإذا برجلٍ طويل ملوَّح الوجه، تبدو عليه أمارات الجِدّ، رجلٌ من أولئك الذين نشعر بأنّهم عبروا بلداناً شاسعة ومجهولة وسطَ مخاطر مستمرّة، فيما تبدو أعينهم الهادئة كما لو أنّها تحتفظ في عمقها بشيءٍ ما من تلك المناظر الغريبة التي رأوها، واحد من أولئك الرّجال الذين نخمّن أنّهم مجبولون من معدن الشّجاعة، تكلّم للمرّة الأولى:

- تقول يا حضرة القبطان إنّك خفت. ولكنّني لا أظنّ ذلك. إنّك تخطئ في الكلمة والشعور الذي خامرك. فرجل قويّ لا يخالطه الخوف أبداً أمام الخطر المُحدق. هو ينفعل ويضطرب ويقلق، ولكنّ الخوف مسألةٌ أخرى.

فتابع القبطان ضاحكاً:

- عجباً! ولكنّني أقول لك إنّني خفت.

فقال الرّجل المسمرّ البشرة بصوتٍ بطيء:

- اسمح لي بأن أوضّح! إنّ الخوف (والرّجال الأكثر شجاعةً

يمكن أن يخافوا) لأمرٌ مرعب، إنّه شعورٌ مريع شبيهٌ بتفكّك الرّوح، بتشنّجٍ فظيعٍ للفكر والقلب، وذكراه وحدها تجعلك ترتجف رعباً. ولكنّ الرّجل الشّجاع لا يحصل له هذا لا أمام هجومٍ ولا أمام الموت المحتّم لا ولا أمام كلّ ضروب الهلاك المعروفة: بل يحصل في بعض الظّروف غير العاديّة وتحت تأثير بعض الأمور المُلغزة في مواجهة مخاطر مبهمة. الخوف الحقيقيّ أشبه ما يكون باستيقاظ مخاوف خياليّة من الأزمنة الخوالي. إنّ رجلاً يؤمن بالأشباح ويتخيّل أنّه يلمح طيفاً في اللّيل يشعر ولا بدّ بالخوف في كلّ رعبه الفظيع.

أمّا أنا، فقد عرفتُ الخوف في وضح النّهار من نحو عشر سنوات. كما أنّني شعرتُ به الشّتاء الفائت ذات ليلةٍ من ليالي كانون الأوّل.

هذا رغم أنّني عرفتُ في حياتي مخاطر شتّى ومغامراتٍ بدت في لحظتها مميتة. وغالباً ما خضتُ معارك. وحصل أن تركني اللّصوص أتأرجح بين الحياة والموت. وفي أميركا اعتبروني ثائراً وحكموا عليّ بالإعدام شنقاً. وعلى سواحل الصّين رموني في البحر من على متن إحدى السّفن. وفي كلّ مرّة كنتُ إخالني هالكاً ولكنّني سرعان ما كنتُ أخرج ظافراً من دون تأثّرٍ أو أسف.

ولكن الخوف، ليس هذا هو الخوف.

لقد شعرتُ به في أفريقيا، رغم أنّه ابن الشّمال، والشّمس تبدّده كما تبدّد الضّباب. لاحِظوا أيّها السّادة. لدى الشّرقيّين، الحياة لا تساوي شيئاً. وهُم سرعان ما يُذعنون للقدر. اللّيالي صافية وخالية من المخاوف القاتمة التي تستبدّ بعقول أهل البلاد الباردة. في الشّرق، قد يعرف الواحد الذّعر، ولكنّه يجهل الخوف.

إذن! إليكم ماذا حدث لي في تلك المنطقة من أفريقيا:

كنتُ أعبر الكثبان الرّملية الكبرى في جنوب ورقلة[1]. وورقلة هي إحدى أكثر مناطق العالم غرابةً. أنتم تعرفون الرّمال المستوية، الرّمال المستقيمة لشطآن المحيط الأطلسيّ الشّاسعة. تخيّلوا إذن المحيط نفسه وقد صار رمالاً في قلبِ إعصار. تخيّلوا عاصفة صامتة من أمواج ثابتة من غبار أصفر. إنّها بعلوّ الجبال، تلك الأمواج غير المتساوية والبالغة التباين، السامقة كأمواج هائجة ولكنّها أضخم منها، وهي مخدّدة مثل نسيجٍ مموّج. على هذا البحر الغاضب والصّامت والسّاكن، تسكب شمس الجنوب المستعرة لهيبها القاسي والمباشر. وينبغي تسلّق صفائح الرّماد الذّهبيّ تلك ومعاودة النّزول، ثمّ التّسلّق مرّة أخرى والاستمرار بالتّسلّق، من دون استراحةٍ ولا تنعُّم بالأفياء. والخيول تحشرج وتغرق حتّى

---

(1) ورقلة مدينة تقع في جنوب الجزائر (المترجمة).

الرّكاب وتنزلق وهي تهبط المنقلب الآخر لتلك التّلال الغريبة.

كنّا صديقين يتبعنا ثمانية جنود فرنسيّين وأربعة جِمالٍ مع حُداتها. كنّا قد توقّفنا عن الكلام وقد أرهقنا الحَرّ والتّعب وجفّفنا العطش مثل تلك الصّحراء المستعرة. فجأةً، أطلق أحد رجالنا ما يشبه الصّرخة، فتوقّف الجميع. وبقينا جامدين وقد صعقتنا ظاهرة ليس لها تفسير يعرفها المسافرون في تلك الأصقاع البعيدة.

في مكانٍ ما بالقرب منّا، وفي جهةٍ يصعب تحديدها، كان طبلٌ يُقرَع، إنّه طبلُ الكثبان المُلغز. كان يُقرَع بوضوح، فيعلو هديره أحياناً ثمّ ينخفض؛ يتوقّف ثمّ يعاود قرعه العظيم.

ارتعب العرب وراحوا ينظرون بعضهم إلى بعض. وقال واحد منهم بلغته: «إنّنا هالكون لا محالة!». وإذا برفيقي وصديقي وأخي يقع من على حصانه، رأسه إلى الأمام، مصعوقاً بضربة شمس.

طوال ساعتين، وفيما أحاول عبثاً إنقاذه، استمرّ ذلك القرع المبهم يملأ أذني بضجيجه الرّتيب والمتقطّع والغامض. وكنتُ أشعر بالخوف، الخوف الحقيقيّ، الخوف الكريه ينسلّ إلى عظامي أمام تلك الجثّة المحبوبة، في تلك الهاوية التي تحرقها الشّمس بين أربعة جبالٍ رمليّة، فيما الصّدى المجهول ينهال علينا بقرع الطّبل

السّريع، على بعد مئات الفراسخ من أقرب قريةٍ فرنسيّة.

في ذلك اليوم، فهمتُ ما يعنيه الشّعور بالخوف. ولكنّني عرفتُ ذلك بشكلٍ أفضل في مناسبة أخرى...

فقاطع القبطان الرّاوي:

- عذراً يا سيّدي ولكن ماذا بشأن الطّبل؟ ماذا كان؟

فأجاب الرّحّالة:

- لا أدري البتّة. ولا أحد يدري. الضّبّاط الذين غالباً ما يصادفون هذا الوقع الفريد يعزونه عموماً إلى الصّدى المضخّم والمضاعَف والمفرط التّفخيم بسبب توهُّد الكثبان لوابلٍ من حبّات الرّمل يحملها الهواء وهي تصطدم بلفيفٍ من الأعشاب الجافّة. ذلك أنّه لوحظ دوماً أنّ الظّاهرة تحدث في جوار النّباتات الصّغيرة المحروقة بالشّمس والمتصلّبة مثل رَقّ الكتابة.

وعليه فما كان ذلك الطّبل إلاّ سراباً صوتيّاً. ولكنّني لم أعلم بذلك إلاّ في ما بعد.

أصل إلى المرّة الثّانية التي أصابني فيها هذا الانفعال.

حدث ذلك الشّتاء الفائت، في غابةٍ في شمال-شرق فرنسا. حلّ المساء أبكر من المعتاد بساعتين لفرط ما كانت السّماء قاتمة. كان دليلي قرويّاً يمشي بالقرب منّي في طريقٍ ضيّقة جدّاً، تحت قبّةٍ من أشجار الصّنوبر التي تنتزع منها الرّياح العاتية عويلاً. وبين

القمم، كنتُ أرى غيوماً تتراكض مذعورة، غيوماً تائهة تبدو كما لو أنّها تفرّ أمام شيء مروّع. وأحياناً، وبتأثير عصفة عظيمة، كانت الغابة بأكملها تنحني في الاتّجاه نفسه مصدرةً أنيناً من الألم. وكان البرد يجتاحني رغم خطواتي السّريعة وملابسي السّميكة.

كنّا قد اتّفقنا أن نتعشّى وننام عند ناطور أحراجٍ لم يعد منزله بعيداً من مكان وجودنا. كنتُ أذهب إلى هناك للصّيد.

أمّا دليلي فكان يرفع أحياناً عينيه ويتمتم: «يا للطّقس السّيّئ!». ثمّ راح يخبرني عن النّاس الذين نقصدهم. كان الأب قد قتل أحد الصيّادين المخالفين قبل عامين، ومنذ تلك اللّحظة كان يبدو متجهّماً كما لو أنّ ذكرى تلك الواقعة تسكنه. وكان ابناه متزوّجين ويقيمان معه.

كانت العتمة دامسة. ولم أكن أرى شيئاً أمامي أو حولي. وكانت كلّ أغصان الأشجار المتصادمة تملأ اللّيل ضوضاء لا تنقطع. أخيراً، لمحتُ ضوءاً، ولم يطل الوقت حتّى قرع رفيقي باباً. فأجابتنا صرخات نساءٍ حادّة. وإذا بصوت رجل، صوتٍ مخنوقٍ يسألنا: «من هنا؟». فعرّف دليلي بنفسه. ودخلنا لنُلفي أنفسنا أمام مشهد لا يُنسى.

كان شيخٌ أبيض الشّعر تائه النّظرات ينتظرنا واقفاً في وسط المطبخ وفي يده بندقيّة محشوّة، في حين كان شابّان طويلان

مسلّحان بفأسين يحرسان الباب. ولمحتُ في زاويتين من الغرفة المعتمة امرأتين راكعتين وقد خبّأتا وجهيهما لصق الجدار.

وشرحنا لهم سبب وجودنا هناك. فأسند العجوز سلاحه مجدّداً إلى الحائط وأمرَ بأن تُهيّأ لي غرفة. ولكن لأنّ المرأتين لم تتحرّكا، قال لي فجأةً:

- أتعرف يا سيّدي، لقد قتلتُ في مثل هذه اللّيلة من عامين رجلاً. وفي السّنة الفائتة عاد ليناديني. وأنا لا زلتُ في انتظاره هذا المساء.

ثمّ أضاف بنبرةٍ جعلتني أبتسم:

- لذا نحن لسنا مرتاحي البال.

فطمأنتُه قدر استطاعتي، سعيداً لمجيئي في تلك اللّيلة تحديداً لأكون شاهداً على استعراض الرّعب المتطيّر ذاك.

ورحتُ أروي لهم حكايات فتمكّنتُ من تهدئة أغلبهم.

وقرب الموقد، كان كلبٌ عجوز شبه أعمى وذو شاربين، من تلك الكلاب التي تشبه أناساً نعرفهم، ينام متكوّراً على نفسه.

وفي الخارج، كانت العاصفة الضّارية تضرب المنزل الصّغير. ومن زجاجٍ ضيّق، هو ضربٌ من كوّة قرب الباب، رأيتُ فجأةً بفضل ضوء البرق الشّديد كومةً من الأشجار تطوّح بها الرّياح.

ورغم جهودي، كنتُ أشعر بأنّ رعباً عميقاً يقبض على أولئك

النّاس، وفي كلّ مرّة كنتُ أكفّ فيها عن الكلام كانت الآذان كلّها تصيخ السّمع إلى بعيد. سئماً من مشهد المخاوف الغبيّة تلك، كنتُ على وشك الاستئذان للإخلاد إلى النّوم، عندما قفز النّاطور العجوز فجأةً من على كرسيّه وتناول من جديد بندقيّته وهو يتمتم بصوتٍ مذعور: «ها هو! ها هو! إنّني أسمعه!» فوقعتِ المرأتان مجدّداً على رُكَبهما في زاويتيهما وهما تخبّئان وجهيهما. وتناول الابنان فأسيهما من جديد. كنتُ أستعدّ لتهدئتهم عندما استيقظ الكلب النّائم فجأةً، ورفع رأسه وأتلع بعنقه وتطلّع صوب النّار بعينه شبه المُطفَأة وأطلق عواءً من ذلك النوع الذي يرتعد له المسافرون مساءً في الرّيف. فالتفتت إليه العيون كلّها، وظلّ هو متجمّداً في مكانه واقفاً على قوائمه كما لو كان مسكوناً برؤيا وراح يعوي صوب شيءٍ غير مرئيّ وغير معروف، شيءٍ فظيعٍ على الأرجح إذ إنّ وبره كلّه كان منتفشاً. فصرخ النّاطور الشّاحب الوجه: «إنّه يشعر به! إنّه يشعر به! فهو كان حاضراً يوم قتلتُه». فما كان من المرأتين المشوّشتين إلاّ أن راحتا تصرخان كلتاهما مع الكلب.

ورغماً عنّي، شعرتُ برعشةٍ قويّة تسري بين كتفيّ. كان مشهد الحيوان في ذلك المكان، وفي تلك اللّحظة، وسطَ أولئك النّاس المضطربين، يبعث على الرّعب.

وطوال ساعة، استمرّ الكلب يعوي من دون حراك. يعوي كما

لو في كابوس. والخوف، الخوف المهول كان يتسلّل إليّ. الخوف ممّ؟ وهل يسعني أن أعرف؟ كان هو الخوف لا غير.

بقينا جامدين شاحبين نتوقّع حصول أمرٍ فظيعٍ، آذاننا مصغية وقلوبنا خافقة يبلبلنا أدنى ضجيج. وإذا بالكلب يبدأ بالدّوران في الغرفة متشمّماً الجدران ومستمرّاً بالأنين. كان ذلك الحيوان يُفقدنا صوابنا! فإذا بالقرويّ الذي أحضرني إلى هناك يهجم عليه في ما يشبه ذروة من الرّعب الغاضب ويفتح الباب المؤدّي إلى باحة صغيرة ويرمي الحيوان خارجاً.

فصمتَ على الفور وظللنا نحن غارقين في صمتٍ أكثر رعباً. وفجأةً اعترانا جميعاً ضرب من الرّعدة: كان كائنٌ يتقدّم بمحاذاة الحائط الخارجيّ باتّجاه الغابة، ثمّ مرّ جنب الباب الذي بدا أنّه يتلمّسه بيدٍ مرتجفة. وطوال دقيقتين فقدنا خلالهما رشدنا لم نعد نسمع أيّ شيء. ثمّ عاد ملامساً الحائط من جديد، وراح يحكّ بشكلٍ خفيفٍ كما يفعل طفلٌ بظفره. وفجأةً ظهر رأسٌ من خلال زجاج الكوّة. رأسٌ أبيض له عينان مضيئتان كمثلِ عينَيْ وحش. وخرج من فمه صوت، صوتٌ مُبهَم، همسٌ شاكٍ.

وإذا بصوتٍ عظيم يدوّي في المطبخ. كان الحارس العجوز قد أطلق النّار. ثمّ سارع الابنان وسدّا الكوّة بعدما قلبا الطّاولة الكبيرة وثبّتاها بخزانة الصّحون.

أقسمُ لكم أنّني لدى سماعي دويّ إطلاق النّار الذي لم أكن أتوقّعه البتّة، أصابني في القلب والرّوح والجسم رعبٌ ما بعده رعب، فأحسستُ بقواي تخور وكدتُ أموت من الخوف.

بقينا في ذلك المكان حتّى الفجر، عاجزين عن القيام بحركة أو قول كلمة يكبّلنا ذعرٌ يفوق الوصف.

ولم نجرؤ على إجلاء المخرج إلاّ بعدما لمحْنا من صدع إفريزٍ فوق الباب خيطاً رفيعاً من أشعّة النّهار.

وعند أسفل الجدار، لصقَ الباب، كان الكلب العجوز يرقد وقد هشّمت وجهه رصاصة.

كان قد خرج من الباحة بعدما حفر حفرةً تحت السّياج.

وسكت الرّجل الأسمر. ثمّ أضاف:

- ومع ذلك، فأنا لم أتعرّض في تلك اللّيلة لأيّ خطر. ولكنّني أفضّل ألف مرّة استعادة كلّ السّاعات التي واجهتُ فيها أكثر المخاطر فظاعةً، على تلك الهنيهة الواحدة التي أُطلِقت فيها النّار على الرأس الملتحي الذي ظهر من الكوّة.

23 تشرين الأوّل/أكتوبر 1882

الذّئب

هذا ما حدّثنا به الماركيز الهرِم دارفيل في نهاية عشاء بمناسبة عيد القدّيس هوبير عند البارون رافيل.

كنّا في ذلك النّهار قد اصطدنا أحد الأيائل. من بين جميع المدعوّين، وحده الماركيز لم يشارك في تلك المطاردة فهو لم يكن يمارس الصّيد.

وطوال مدّة العشاء العامر، لم تدُر الأحاديث إلاّ حول إبادة الحيوانات. حتّى النّساء كنّ مهتمّات بالحكايات الدّامية العسيرة في أغلبها على التّصديق. وكان المتحدّثون يقلّدون لحظات الهجوم والمعارك بين الرّجال والحيوانات، فيرفعون أذرعتهم ويشرعون

بالسّرد بأصوات مدويّة.

كان السيّد دارفيل متحدّثاً جيّداً، يروي بشيءٍ من الشّاعريّة المفخّمة نوعاً ما والشّديدة التّأثير. كان قد كرّر غالباً هذه الحكاية على الأرجح، فهو كان يرويها بطلاقة ولا يتردّد في الكلمات المختارة ببراعة لرسم صورةٍ للسّامعين.

- أنا يا سادة لم أمارس الصّيد قطّ، ولا أبي فعل ذلك، لا ولا جدّي ولا حتّى والده. وهذا الأخير كان ابنَ رجلٍ اصطاد أكثر منكم جميعاً. وهو قد توفّي في 1764. وسأروي لكم كيف.

كان يُدعى جان، وكان متزوّجاً وأباً للطّفل الذي كانه جدّ جدّي. وكان يقطن مع شقيقه الأصغر فرانسوا دارفيل في قصرنا في منطقة لورين في وسط الغابة.

بقي فرانسوا دارفيل عازباً بسبب شغفه بالصّيد.

كان هو وشقيقه يصطادان من أوّل السّنة إلى آخرها، بلا استراحةٍ ولا توقّف ولا ملل. كان الصّيد هو كلّ ما يحبّانه وكلّ ما يفهمانه وكلّ ما يتحدّثان به وكلّ ما يعيشان من أجله.

كانا يحملان في قلبيهما هذا الشّغف الفظيع والقاسي. شغف يحرقهما وقد اجتاح كيانَيهما تماماً من غير أن يترك مكاناً لأيّ شيء آخر.

وكانا قد منَعا منعاً باتّاً أن يزعجهما أحد خلال الصّيد لأيّ

سبب كان. وُلد جدّ جدّي فيما كان والده يطارد ثعلباً، ولكنّ جان دارفيل لم يوقف الملاحقة قطّ بل قال شاتماً: «اللّعنة، كان يمكن لهذا الأبله أن ينتظر انتهاء الصّيد!».

أمّا شقيقه فرانسوا فكان يبدو أكثر هياماً بالصّيد منه. فكان ما إن يستيقظ حتّى يذهب لتفقّد الكلاب وبعدها الخيول، ثمّ يروح يطلق النّار على الطيور حول القصر حتّى يحين موعد الذّهاب لمطاردة حيوانٍ كبير.

وفي المنطقة كانا يُسمَّيان السيّد الماركيز والسيّد الأصغر. فنبلاء ذلك الزّمن ما كانوا يُعيرون هذه الأمور أهميّة خلافاً لنبلاء اليوم المزعومين الذين يريدون أن يُقيموا في الألقاب تراتبيّةً تنازليّة. فكما أنّ ابن الجنرال ليس عقيداً بالولادة، ليس ابن الماركيز كونتاً بالضّرورة، ولا ابن الفيكونت[1] باروناً. ولكنّ الغرور المسكين في أيّامنا يجد في هذا التّرتيب منفعة.

أعود إلى جدَّيّ.

كانا على ما يبدو شديدَي طول القامة، بارزَي العظام وأشعرَين وعنيفين وقويّين. وكان لأصغرهما الذي يفوق البكر طولاً صوتٌ جهيرٌ ترتجف له أوراق الغابة كلّها عندما يصرخ،

(1) الفيكونت شريف فوق البارون ودون الكونت. والماركيز أعلى منهم مرتبة (المترجمة).

وذلك بحسب أسطورةٍ كان يزهو بها.

ولا بدّ أنّ مشهد هذين العملاقين وهما يمتطيان جوادَيهما الضّخمين للذّهاب إلى الصّيد كان أمراً رائعاً.

إلاّ أنّه في حوالى منتصف شتاء 1764، كان البرد قارساً والذّئاب صارت ضارية حتّى أنّها كانت تهاجم القرويّين المتأخّرين وتحوم في اللّيل حول المنازل وتستمرّ بالعواء من مغيب الشّمس حتّى شروقها وتُفرغ الحظائر من الحيوانات.

وسرعان ما انتشرت شائعة، وراح يُحكى عن ذئبٍ هائل الحجم ذي فروٍ رماديّ، شبه أبيض، كان قد أكل طفلين والتهم ذراع امرأة وخنَق كلّ كلاب الحراسة في المنطقة، وكان يعبر الأسيجة بلا خوفٍ ليتشمّم تحت الأبواب. وكان كلّ السّكّان يؤكّدون أنّهم أحسّوا بلهاثه الذي كان بسببٍ منه يتمايل لهب المصابيح. وسرعان ما انتشر الذّعر في المنطقة كلّها. ولم يعد أحد يجرؤ على الخروج ما إن يحلّ المساء. فقد كانت العتمة تبدو مسكونة بصورة ذلك الحيوان.

فقرّر الأخَوان دارفيل أن يعثرا عليه ويقتلاه، فراحا يدعوان كلّ نبلاء المنطقة إلى جولات صيدٍ كبيرة.

ولكن بلا جدوى. فعبثاً كانوا يجوبون الغابات ويفتّشون في الأدغال، ما كانوا يلتقون بالحيوان أبداً. كانوا يقتلون ذئاباً ولكن

ليس هذا بعينه. وفي كلّ ليلةٍ تلي عملية البحث عنه كان الحيوان، كما لو بهدف الانتقام، يهاجم بعض المسافرين أو يلتهم بعض الماشية، وكان يفعل ذلك دوماً في مكانٍ بعيد عن المكان الذي بحثوا عنه فيه.

وأخيراً، تسلّل ذات ليلة إلى حظيرة الماشية في قصر دارفيل والتهمَ أسمَن حيوانين.

فاستشاط الأخَوان غضباً واعتبرا هذا الهجوم تبجّحاً من الوحش وإهانةً مباشرةً وتحدّياً. فأخذا كلّ كلابهما الضارية والمعتادة على مطاردة الحيوانات المُخيفة، وانطلقا إلى الصّيد وهما يجيشان بالغضب.

ومن الفجر حتّى السّاعة التي غاصت فيها الشّمس الأرجوانيّة خلف الأشجار الضّخمة العارية، ظلاّ يجوبان الأدغال من دون أن يجدا شيئاً.

وأخيراً، وبينما كانا عائدين كلّ منهما على صهوة جواده، غاضبَين وآسفين ومتعجّبين من قدرة ذلك الذّئب على الإفلات من حنكتهما في الصّيد، اجتاحهما فجأةً نوعٌ من الجزع المبهم.

فقال الأخ البكر:

- ليس هذا الحيوان بعاديّ. كأنّي به يفكّر كإنسان.

فأجاب الأخ الصغر:

- ربّما يجدر بنا أن نجعل نسيبنا الأسقف يبارك إحدى رصاصاتنا، أو نطلب من أحد الكهنة أن يتلو عليها الصّلوات المناسبة.

وسكتا.

ثمّ تابع جان:

- انظر إلى الشّمس كم هي حمراء! لا بدّ أنّ الذّئب الكبير سيبطش هذه اللّيلة.

ولم يكد ينهي كلامه حتّى جمَحَ جواده، فيما راح جواد فرانسوا يرفس. وإذا بدغلٍ كثيف تغطّيه الأوراق اليابسة ينفتح أمامهما ليظهر منه حيوانٌ رماديّ ضخم ويمضي هارباً عبر الغابة.

فأطلقا ما يشبه همهمةً من الفرح، ثمّ انحنى كلّ منهما على رقبة جواده الضّخم وانطلق به إلى الأمام بدفعةٍ من جسمه كلّه، يحثّه على الجري بأقصى سرعة، ويحفّزه ويدفعه ويرعبه بالصّوت والحركة والمهماز، حتّى أنّ الفارسين الجبّارَين كانا يبدوان وكأنّهما يحملان الدّابّتين الثّقيلتين بين أفخاذهما كما لو كانا يطيران.

وهكذا كانا يتقدّمان بسرعةٍ شديدةٍ، يشقّان الأدغال ويقطعان الوِهاد ويتسلّقان الهضاب ويهبطان في الشّعاب الضيّقة نافخين في أبواق الصّيد بملء رئتيهما لإخطار خدمهم وكلابهم.

ولكن فجأةً، في ذلك السّباق المحموم اصطدم رأس جدّي

بغصنٍ ضخمٍ شقّ جمجمته، فوقع على الأرض ميتاً فيما جمح حصانه وقد أصابه الهلع ليختفي في ظلام الغابة المُحيط.

فتوقّف الأخ الأصغر على الفور وقفز أرضاً وأخذ أخاه بين ذراعيه، فرأى النّخاع يندلق من الجرح مع الدّماء.

فجلس إلى جانب الجثّة، وأسند الرّأس المشوّه والدّامي إلى ركبتيه وراح ينتظر متأمّلاً وجه أخيه البكر الجامد ذاك. وشيئاً فشيئاً بدأ يجتاحه الخوف، خوفٌ فريد لم يسبق أن شعر به قبل ذلك اليوم، الخوف من العتمة، الخوف من الوحدة، الخوف من الغابة المقفرة ومن الذّئب العظيم الذي كان قتل للتوّ شقيقه انتقاماً منهما.

وكان الظّلام يزداد حُلكةً، والبرد القارس يجعل الأشجار تطقطق. فنهض فرانسوا مرتجفاً، عاجزاً عن البقاء في المكان وقتاً أطول، وهو يحسّ بأنّه على شفير الانهيار. ولم يعد يُسمَع شيء، لا صوت الكلاب ولا صوت أبواق الصّيد، كان كلّ شيء صامتاً في الأفق غير المرئيّ. وكان في ذلك الصّمت الكئيب للمساء المُصقع شيءٌ ما مرعِب وغريب.

وأمسك بيديه الضّخمتين جسمَ جان الثّقيل، وأنهضه ومدّده على السّرج ليُعيده إلى القصر. ثمّ عاود الانطلاق بهدوءٍ، مشوّش الذّهن كما لو كان ثملاً، فيما تلاحقه صور تبعث على الرّعب

والذّهول.

وفجأةً، في الدّرب الذي كان يكتسحه الظلام، مرّ شبحٌ كبير. كان ذلك هو الذئب. فإذا برجفة ذعرٍ تهزّ الصيّاد، شيء بارد، أشبه ما يكون بقطرة من الماء، يسري على امتداد ظهره. ومثل راهبٍ مسكونٍ بالشّيطان، رسمَ علامة الصّليب وقد أصابه الاضطراب من جرّاء تلك العودة المفاجئة للحيوان المُرعب الحائم في الأنحاء. ولكنّ عينيه وقعتا مجدّداً على الجثّة الهامدة الممدّدة أمامه، فانتقل فجأةً من الخوف إلى الغضب، وراح يرتجف بغيظٍ جامح.

فهمز حصانه واندفع خلف الذّئب.

كان يتبعه عبر الأخياس والوديان والأدغال، قاطعاً غاباتٍ لم يعد يعرفها، ونظره مركّز على البقعة البيضاء التي تفرّ في الظلمة التي خيّمت على الأرض.

وكذلك جواده بَدا كما لو أنّ قوّةً واندفاعاً غامضين كانا يحرّكانه. فكان يعدو مشرئبّ العنق، في خطّ مستقيم أمامه، جاعلاً رأس الميت المطروح بالعرْض على السّرج ورجليه تصطدم بالأشجار والصّخور. فكان العلّيق ينتزع شعره، وجبينه يرتطم بالجذوع الضّخمة ويلطّخها بالدّماء، ومهمازا جزمتَيه يمزّقان لحاء الأشجار.

وفجأةً خرج الجواد وفارسه من الغابة واندفعا في وادٍ صغيرٍ

فيما كان القمر يظهر فوق الجبال. كان الوادي صخريّاً تسدّه حجارةٌ ضخمة بلا منفذ ممكن. وإذا بالذّئب المُحاصَر يستدير.

فأطلق فرانسوا صرخةَ فرحٍ تردّدت أصداؤها مثل هزيم الرّعد وقفز من على جواده وسيفه في يده.

كان الحيوان ينتظره مقوّس الظّهر منتفش الفرو وعيناه تبرقان كنجمتين. ولكن قبل خوض المعركة، أمسك الصيّاد الجبّار بأخيه وأجلسه على صخرة وثبّت بالحجارة رأسَه الذي لم يعد إلاّ بقعةَ دماء، وصرخ في أذنيه كما لو كان يكلّم كائناً أصمّ: «انظرْ، يا جان، انظرْ إلى هذا!».

ثمّ ارتمى على الوحش. كان يشعر أنّ فيه قوّةً تدكّ جبلاً، قوّة تجعله قادراً على طحنِ حجارةٍ بيديه. أراد الحيوان أن يعضّه ليبقر بطنه، ولكنّ الصيّاد أمسك به من عنقه، من دون حتّى أن يستخدم سلاحه، وراح يخنقه بهدوء مستمعاً إلى أنفاسه ودقّات قلبه وهي تتوقّف. وكان يضحك، مستمتعاً بجنون، ضاغطاً على عنقه أكثر فأكثر، صارخاً في هذيانٍ من الفرح: «أنظرْ يا جان، انظرْ!». ثمّ كفّت كلّ مقاومة، وارتخى جسم الذّئب. كان قد مات.

فأخذه فرانسوا بين ذراعيه وراح ليرميه عند قدمي أخيه البكر وهو يردّد بصوتٍ حنون: «إليك، إليك، إليك يا صغيري جان، ها هو!».

ثمّ وضع الجثّتين على السّرج الواحدة على الأخرى وعاود الانطلاق.

عاد إلى القصر ضاحكاً وباكياً مثل غارغانتوا عند ولادة بانتاغرويل[1]، مطلقاً صيحات ظفرٍ وقافزاً من الفرح وهو يروي موت الحيوان، وشاكياً وناتفاً لحيته وهو يروي موت أخيه.

فيما بعد، عندما كان يحكي عن ذلك اليوم، كان غالباً ما يقول والدّموع تملأ عينيه: «لو أنّ المسكين جان تمكّن من رؤيتي أخنق ذلك الحيوان لماتَ سعيداً، أنا متأكّد!».

أمّا أرملة سلَفي فبذرتْ في نفْسِ ابنها اليتيم كرهَ الصّيد، ذلك الكره الذي بقي ينتقل أباً عن جدّ حتّى وصل إليّ».

وسكت الماركيز دارفيل. ثمّ سأله أحدهم:

- هذه الحكاية خرافيّة، أليس كذلك؟

فأجاب الرّاوي:

- أقسم لك أنّها صحيحة من أوّلها إلى آخرها.

فقالت امرأة بصوتٍ رقيق:

- لا يهمّني ما تكون، فما أجمل أن تكون للمرء عواطف كهذه!

14 تشرين الثّاني/نوفمبر 1882

---

(1) غارغانتوا وبانتاغرويل: عملاقان أسطوريّان نسج فرانسوا رابليه François Rabelais (1553–1494/1483) حولهما روايتين وقّعهما باسم مستعار هو ألكوفريباس نازييه Alcofribas Nasier (المترجمة).

السّعادة

كانت تلك ساعة تناول الشّاي قبل إضاءة القناديل. الفيلا تطلّ على البحر، والشّمس المحتجبة تركت بعد مرورها السّماءَ ورديّةً تماماً، وكمثْل المرشوشة بالتّبْر. والبحر المتوسّط لا تموّج فيه ولا ارتعاش، أملس تماماً، ولا يني يلمع تحت ضوء النّهار الآيل إلى الأفول، ويبدو كصفيحةٍ معدنيّة هائلة مصقولة. وفي البعيد، من جهة اليمين، كانت الجبال المسنّنة ترسم خيالها الجانبيّ الأسود على أرجوان المغيب، الشّاحب.

وكان الحديث يدور حول هذا الموضوع الأزليّ، موضوع الحبّ. فكانت تُقال فيه من جديد أمورٌ سبق أن قيلت مراراً

وتكراراً. وكانت كآبة الغسق الرّقيقة تجعل الكلام بطيئاً، وتنفح النّفوس بالحنان. وكلمة «حبّ» التي لا تنفكّ تتكرّر، حيناً بصوت رجلٍ جهوريّ وحيناً بصوت امرأةٍ له رنين خفيف، كانت تبدو وكأنّها تملأ الصّالة الصّغيرة وترفرف فيها كعصفور وتحوم كمثلِ روح.

أيمكن أن نحبّ لعدّة سنوات متواصلة؟

- نعم، كان يدّعي بعضهم.

- كلاّ، كان يؤكّد آخرون.

وكانوا يميّزون بين حالات الحبّ ويضعون الحدود الفاصلة ويعدّدون الأمثلة. وكان التّأثّر بادياً عليهم جميعاً، رجال ونساء تملؤهم الذّكريات المؤثّرة التي تنبثق من عمق الذّاكرة وتصعد إلى شفاههم دون أن يقدروا على البوح بها. فكانوا يتحدّثون بانفعال عميق واهتمام شديد عن هذا الشّيء المألوف والسّامي الذي هو التّلاحم الرّقيق والمُلغز بين كائنين.

ولكن فجأةً هتف أحدهم وعيناه تنظران إلى البعيد:

- أوه! انظروا هناك، ما هذا؟

في البحر، في عمق الأفق، كانت تنبثق كتلة رماديّة، ضخمة ومُبهمة.

كانت النّساء قد وقفن ورحن ينظرن من دون أن يفهمن ما هو

ذلك الشّيء الغريب الذي لم يسبق أن رأينه.

قال أحدهم:

- إنّها كورسيكا! يمكن رؤيتها من هنا مرّتين أو ثلاثاً في السّنة في ظروف مناخيّة استثنائيّة، عندما يكون الجوّ صافياً تماماً ولا يُخفيها كالعادة خلف الضّباب النّاجم عن بخار الماء الذي يحجب دوماً الأقاصي.

وكانت القمم شبه مرئيّة وبدا لهم أنّهم يلمحون الثّلوج التي تغطّيها. وكانوا جميعاً ذاهلين ومرتبكين وشبه خائفين من ذلك العالَم الذي ظهر فجأةً، ذلك الشّبح الخارج من البحر. وربّما راودتهم رؤىً غريبة عن أولئك الذين رحلوا، على غرار كولومبوس، عبر مُحيطات مجهولة.

وإذا برجلٍ لم يكن قد تكلّم بَعد يقول:

- لقد عرفتُ في هذه الجزيرة التي تنتصب أمامنا كما لو لتُجيب بنفسها عمّا كنّا نحكيه وتُعيد إليّ ذكرى فريدة، أقول عرفتُ مثالاً عجيباً عن حبّ ثابت، حبّ سعيد على نحوٍ لا يمكن تصديقه.

هاكم الحكاية.

قمتُ قبل خمس سنوات برحلةٍ إلى كورسيكا. هذه الجزيرة المتوحّشة هي أبعد وأكثر غموضاً بالنّسبة إلينا من أميركا، رغم

أنّنا نراها أحياناً من الشّطآن الفرنسيّة كما هي الحال اليوم.

تخيّلوا عالمًا لا يزال في حالة العَماء[1]، وزوبعة من جبال تفصل بينها وِهاد ضيّقة تجري فيها سيول. ما من سهلٍ، بل أمواجٌ هائلة من الصوّان وتموّجات ضخمة من الأراضي المغطّاة بالأدغال أو بغابات الكستناء والصّنوبر السّامقة. إنّها أرضٌ بكر، بائرة ومُقفرة رغم أنّه أحياناً تُلمح قرية أشبه ما تكون بكومةٍ من الصّخور على قمّة جبل. ولا زرع ولا صناعة، لا ولا أيّة حرفة. فلا يمكن العثور على قطعة خشب مشغولة أو حجر منحوت أو أيّ ذكرى عن ميل طفوليّ أو مرهف كان يبديه الأجداد إلى الأشياء الجميلة والأنيقة. وهذا تحديداً هو أكثر ما يصدم في هذا البلد الرّائع والقاسي: اللّامبالاة المتوارَثة حيال هذا البحث عن الأشكال الفاتنة المُسمّى فنّاً.

فإيطاليا، حيث كلّ قصر مملوءٍ بالتّحف هو تحفة في حدّ ذاته، وحيث المرمر والخشب والبرونز والحديد والمعادن الأخرى والحجارة تشهد على عبقريّة الإنسان، وحيث أصغر الأغراض القديمة المبعثرة في المنازل القديمة تشي بهذا الانهمام الفائق بالجمال، إيطاليا أقول هي بالنّسبة إلينا جميعاً الوطن المقدّس الذي نحبّه لأنّها تُظهِر لنا وتؤكّد جهد الذّكاء الخلاّق وعظمته وظفره.

---

(1) حالة الخليط المضطرب من عناصر الكون قبل أن يتشكّل منها العالم (المترجمة).

في مواجهتها، بقيت كورسيكا المتوحّشة على حالها منذ وُجدت. هناك يعيش الكائن في منزله غير المُتقن، غيرَ مبالٍ بكلّ ما لا يمسّ وجوده نفْسَه أو خصوماته العائليّة. وهو قد احتفظ بالسّيّئات والحسنات التي تميّز المجموعات البشريّة الجاهلة والعنيفة والمُبغضة والدمويّة بشكلٍ غير واعٍ، والمضيافة أيضاً والكريمة والمتفانية والسّاذجة، التي تفتح أبوابها للعابرين وتمنح صداقتها المخلصة مقابل أدنى علامة ودّ.

كنتُ إذن أهيم منذ شهر في تلك الجزيرة الرّائعة يتملّكني شعورٌ بأنّني في أقصى العالم. لا نُزُل هناك ولا مشاربَ ولا طرق. وعبر دروب ضيّقة يمكن بلوغ تلك القرى المعلّقة في سفوح الجبال والتي تطلّ على هاويات متعرّجة حيث يصّاعد في المساء هدير السّيل المتواصل، ويُسمَع صوته العميق والمكتوم. هناك نطرق على أبواب المنازل. ونسأل عن ملاذٍ للّيلة وما يسدّ الرّمق حتّى اليوم التّالي. نجلس إلى المائدة المتواضعة وننام تحت السّقف المتواضع، وفي الصّباح نصافح يد المُضيف الممدودة بعدما يكون قد رافقَنا حتّى تخوم القرية.

ولكن ذات مساء، وبعد عشر ساعات من المشي، بلغتُ منزلاً صغيراً يرتفع وحيداً في عمق وادٍ ضيّق يرتمي في البحر بعد مسافة فرسخ. وكان منحدرا الجبل الشّديدا الانحدار والمغطَّيان

بالأدغال والصّخور المنهارة والأشجار الكبيرة يحتجزان هذا الوادي الحزين بشكلٍ مؤسفٍ مثل سورَين قاتمين.

حول الكوخ، بعض الدّوالي وحديقة صغيرة، وأبعدَ قليلاً ثمّة بعض أشجار الكستناء الكبيرة، باختصارٍ ما يكفي للعيش، وهذا يعدّ ثروة في ذلك البلد الفقير.

كانت المرأة التي استقبلتني عجوزاً صارمة المظهر ونظيفة بما يشذّ عن القاعدة. أمّا الرّجل الذي كان جالساً على كرسيّ من القشّ فنهض ليسلّم عليّ ثمّ عاود الجلوس من دون أن يقول كلمة. فقالت لي زوجته:

- اعذرْه، فهو الآن أصمّ. إنّه في الثّانية والثّمانين.

كانت تتحدّث بفرنسيّة الفرنسيّين. ممّا فاجأني.

وسألتُها:

- ألستِ من كورسيكا؟

فأجابتني:

- كلاّ، نحن من فرنسا القارّيّة ولكنّنا نعيش هنا منذ خمسين عاماً.

فاعتراني خوف ورعب أمام فكرة الخمسين سنة تلك المُمضاة في ذلك الجُحر القاتم بعيداً جدّاً عن المدن المأهولة بالبشر. ثمّ دخل كلبُ راعٍ هرمٌ ورحنا نأكل الطّبق الوحيد المُحضّر للعشاء،

وهو حساء سميك طُبِخت فيه بطاطس وشحم وملفوف.

وعندما انتهينا من تناول الوجبة السّريعة تلك، ذهبتُ للجلوس أمام الباب وقلبي منقبضٌ من كآبة المنظر الحزين، تغمره تلك الوحشة التي تُصيب أحياناً المسافرين في الأمسيات الحزينة في بعض الأماكن المقفرة. كلّ شيء يبدو آنئذٍ على وشك الانتهاء، الكون والوجود. نلمس فجأةً شقاء الحياة الفظيع وعزلة النّاس وتفاهة الأشياء ووحدة القلب القاتمة، القلب الذي يهدهد نفسه ويخدع ذاته بالأحلام حتّى الموت.

انضمّت المرأة العجوز إليّ، يعذّبها ذلك الفضول الذي يظلّ حيّاً في عمق أكثر النّفوس إذعاناً للقدر وقالت:

- أنت إذن قادم من فرنسا؟

- أجل، أسافر في سبيل المتعة.

- وهل أنت من باريس؟

- كلاّ، أنا من نانسي.

وبَدا لي أنّها كانت فريسة تأثّر شديد. كيف لمحتُ ذلك أو أحسستُ به، ما عدت لأدري.

جعلتْ تكرّر ببطءٍ:

- أنتَ من نانسي!

وإذا بالرّجل يظهر من الباب جامد الملامح مثلما هم الصّمّ

عادةً.

فتابعتْ:

- لا بأس، فهو لا يسمع.

ثمّ أضافت بعد بضع ثوانٍ:

- أنتَ إذن تعرف بعض النّاس في نانسي؟

- طبعاً، أكاد أعرف الجميع.

- وعائلة سانت-أليز؟

- أعرفها جيّداً. فقد كان أفرادها أصدقاء لأبي.

- وما اسمك؟

عرّفتُها بنفسي. فنظرت إليّ بإمعان ثمّ قالت بذلك الصّوت الخفيض الذي توقظه الذّكريات:

- أجل، أجل، أذكر جيّداً. وآل بريزمار؟ ماذا حلّ بهم؟

- لقد تُوفّوا جميعاً.

- آه! وآل سيرمون؟ أتعرفهم؟

- أجل، أصغرهم جنرال.

فقالت وهي ترتجف من الانفعال، من القلق، ومن شعورٍ مُبهم لا أدري ما هو، عظيم ومقدّس، من حاجةٍ غريبة للبوح، لقولِ كلّ شيء، للكلام عن هذه الأمور التي احتفظتْ هي بها حتّى تلك اللّحظة محبوسةً في عمق أعماقها، عن أولئك النّاس

الذين تتنفض روحها لمجرّد سماع أسمائهم:

- نعم، هنري دو سيرمون. أعرفه جيّداً. إنّه شقيقي.

فنظرتُ إليها مذهولاً من المفاجأة. وفجأةً تذكّرتُ.

تسبّب الأمر فيما مضى بفضيحةٍ كبيرة في مجتمع النّبلاء في منطقة اللّورين. كانت شابّة جميلة وثريّة تُدعى سوزان دو سيرمون قد اختطفها ضابط صفّ من الخيّالة في الكتيبة الخاضعة لإمرة والدها.

وكان ذلك المحارب الذي أغرى ابنة العقيد المسؤول عنه شابّاً وسيماً، ابن فلاّحين ولكنّه يرتدي الدُّرّاعة[1] عن استحقاق. وكانت قد رأتْه واسترعى انتباهها وأحبّته خلال مشاهدتها استعراض السّرايا على الأرجح. ولكن كيف تمكّنت من التّحدّث إليه، وكيف أمكنهما أن يلتقيا ويتفاهما؟ كيف تجرّأت على البوح له بحبّها؟ هذا ما لم يتمكّن أحد من معرفته قطّ.

لم يخمّن أحدٌ شيئاً. وذات مساء، ولمّا كان الضابط قد أنهى عمله، اختفى معها. بحثوا عنهما ولكن لم يجدوهما. ولم يُعرَف عن أخبارها شيء وعُدَّتْ ميتة.

وها أنا أعثر عليها في هذا الوادي الكئيب.

فقلتُ بدوري:

(1) ثوب قصير يرتديه المُحارِب (المترجمة).

- أجل، أذكرُ جيّداً. أنتِ الآنسة سوزان.

فأجابت بـ «نعم» بإيماءةٍ من رأسها. وكانت الدّموع تنهمر من عينيها.

ثمّ قالت لي وهي تنظر صوب الشيخ الواقف عند مدخل كوخه:

- إنّه هو.

ففهمتُ أنّها كانت ما تزال تحبّه، وأنّها لا تزال تنظر إليه بعينين مفتونتين.

وسألتُها:

- وهل كنتِ على الأقلّ سعيدة؟

فأجابت بصوتٍ طالعٍ من القلب:

- آه أجل! سعيدة جدّاً. لقد جعلنَي سعيدة جدّاً. لم أندم على شيءٍ قطّ.

كنتُ أتأمّلها حزيناً ومندهشاً ومسحوراً بقوّة الحبّ! فتلك الفتاة الثّريّة تبعتْ ذلك الرّجل، ذلك الفلاّح. وصارت هي بدورها فلاّحة. واعتادت حياتها الخالية من أيّ سحرٍ أو ترفٍ أو رهافةٍ من أيّ نوع. ورضيت بعاداتها البسيطة. وكانت لا تزال تحبّه. صارت زوجة فلاّح فظّ، ترتدي قلنسوة بسيطة وتنّورة من الكتّان. وفي طبقٍ من الفخّار، على طاولةٍ من الخشب وكرسيٍّ من

القشّ، كانت تأكل سليقة الملفوف والبطاطس بالشّحم. وتنام إلى جانبه على فراشٍ من القشّ.

لم تفكّر قطّ إلاّ فيه! لم تتحسّر لا على الحِلى ولا على الملابس والمقتنيات الأنيقة؛ لا على وثير المقاعد ولا على الدّفء العَطِر للغرف المجلّلة بالسّتائر أو الرّيش النّاعم الذي تغرق فيه الأجساد طلباً للرّاحة. لم تكن يوماً بحاجة إلاّ إليه. يكفيها أن يكون هو موجوداً حتّى لا تعود راغبة في أيّ شيءٍ آخر.

لقد تخلّت في عزّ الصبا عن الحياة والعالم وعمّن ربّوها وأحبّوها. وجاءت لتعيش وحدها معه في ذلك الوادي المُقفر. وهو كان لها كلّ شيءٍ، كلّ ما تبتغيه، وكلّ ما تحلم به، وكلّ ما لا تكفّ عن انتظاره، وكلّ ما تأمله على الدّوام. لقد ملأ حياتها سعادةً من أوّلها إلى آخرها.

لم يكن بالإمكان أن تكون أكثر سعادة.

وطوال اللّيل، بقيتُ وأنا أستمع إلى التنفّس الخشن للضابط الهرِم وهو متمدّد على سريره الفقير إلى جانب تلك التي تبعتْه من بعيدٍ، أقول بقيتُ أفكّر في تلك المغامرة الغريبة والبسيطة وبتلك السّعادة الشّديدة الكمال المصنوعة من القليل.

ومع طلوع الشّمس، غادرتُ الزّوجين المسنّين بعدما صافحتُهما.

وسكت الرّاوي. فقالت امرأة:

- مهما يكن من أمر، لقد كان مثالها الأعلى شديد السّهولة وحاجاتها شديدة البدائيّة ومتطلّباتها شديدة البساطة. لم تكن إلاّ حمقاء.

فقالت امرأة أخرى بصوتٍ بطيء:

- ما همّ! لقد كانت سعيدة.

وهناك، في غور الأفق، كانت كورسيكا تغرق في اللّيل وتدخل بهدوء في البحر وتمحو طيفها العظيم الذي ظهر كما لو ليروي بنفسه قصّة الحبيبين المتواضعين اللّذين تؤويهما ضفافه.

16 آذار/مارس 1884

رقصة «المونُويه»[1]

- إلى بول بورجيه

A Paul Bourget

لا تُحبِطني المصائب الكبرى أبداً، هذا ما قاله جان بريديل، رجلٌ لا يزال عازباً ومعروفٌ عنه تشكيكه في كلّ شيء، وأضاف: فقد رأيتُ الحرب من كثب. كنتُ أعبر فوق الجثث بلا إشفاق. يمكن أن تدفعنا الفظاظة الكبيرة للطّبيعة أو النّاس لأن نُطلق صرخات ذعرٍ أو استنكارٍ ولكنّها لا تصيبنا بذلك الانقباض في القلب، تلك الرّعشة التي تنساب في ظهر المرء لدى رؤية بعض الأشياء الصّغيرة المُحزنة.

(1) المونُويه Menuet هو اسم رقصة بثلاثة أوقات كانت شائعة في البلاط الفرنسي في القرن السّابع عشر (المترجمة).

إنّ أعنف ألم هو هذا الذي يصيب أمّاً فقدت ولدها أو رجلاً فقدَ أمّه. إنّ هذا لعنيف وفظيع، فهو يهزّ المرء ويمزّقه. ولكنّنا نُشفى من هذه الكوارث مثلما نُشفى من جراح كبيرة نازفة. إلاّ أنّ بعض اللّقاءات وبعض الأشياء التي لا نكاد نلمحها، والتي نخمّنها تخميناً، بعض الأحزان المكبوتة، بعض خيانات القدر تحرّك فينا عالماً أليماً من الأفكار التي تفتح أمامنا فجأةً الباب الغامض، باب العذابات النفسيّة المعقّدة والتي لا شفاء منها. عذابات بالغة العمق لا سيّما وأنّها تبدو هيّنة، شديدة الإيلام لا سيّما وأنّها تبدو شبْه عصيّة على الفهم، وراسخة لا سيّما وأنّها تبدو وهميّة. عذابات تخلّف في الرّوح طعماً من المرارة وشعوراً بالخيبة وآثاراً يلزمنا وقتٌ طويلٌ حتّى نتخلّص منها.

لا أزال أرى أمام ناظريّ أمرين أو ثلاثة أمور لم يكن غيري لينتبه إليها، وقد اخترقتني مثل وخزاتِ إبَرٍ طويلةٍ ودقيقةٍ يتعذّر الشّفاء منها.

قد لا تدركون الانفعال الذي تركتْه فيّ هذه الانطباعات السّريعة. لن أروي لكم إلاّ واحداً منها. إنّه قديم جدّاً ولكنّه لا يزال حادّاً كما لو أنّه حدث أمس. وحدها مخيّلتي يمكن أن تكون قد دفعت ثمن تأثّري ذلك اليوم.

عمري خمسون عاماً. كنتُ آنذاك شابّاً أدرس الحقوق.

حزيناً وحالماً بعض الشيء ومطبوعاً بفلسفة سوداويّة؛ لم أكن أحبّ المقاهي الكثيرة الضّجيج ولا الرّفاق الصّاخبين لا ولا الفتيات الغبيّات. كنتُ أستيقظ باكراً، وكانت لذّتي الأغلى على قلبي هي التنزّه وحدي حوالى الثّامنة صباحاً في مشتل حديقة اللّوكسمبورغ.

ألم تعرفوه أنتم، ذلك المشتل؟ كان أشبه ما يكون بحديقة منسيّة من القرن الماضي، حديقة جميلة مثل ابتسامة لطيفة لعجوز. أسيجة كثيفة كانت تفصل بين الممرّات الضيّقة والمتناسقة، ممرّات هادئة بين جدارين من أوراق الشّجر المقلّمة بانتظام وعناية. فقد كان مقصّ البستانيّ الكبير قد راصف بدقّة تلك الحواجز من الأغصان. ومن مكانٍ لآخَر يصادف المرء أجزاء مخصّصة للأزهار، وصفوفَ شجيرات مرصوفة مثل تلاميذ في رحلة، ومجموعاتٍ من أشجار الورد الرّائعة أو أفواجاً من الأشجار المثمرة.

كان ركن كامل من تلك الغابة الصّغيرة يسكنه النّحل. قفائرها التي هي من القشّ، المتباعدة بدقّة بعضها عن بعض على ألواحٍ خشبيّة، تفتح للشّمس أبوابها الكبيرة كِبَر فُتحة كشتبان. وعلى طول الممرّات يصادف المرء ذباباً ذهبيّ اللّون طنّاناً، هو السيّد الحقيقيّ لذلك المكان الهادئ، والمتنزّه الحقيقيّ في الأروقة

السّاكنة تلك.

كنتُ آتي إلى ذلك المكان أغلب الصباحات. أجلس على مقعد وأقرأ. وأحياناً كنتُ أترك الكتاب على ركبتيّ لأحلمَ وأستمعَ إلى باريس تحيا من حولي، وأستمتع بالسّكون المتناهي لتلك الخمائل المصمّمة على الطّراز القديم.

ولكنّني سرعان ما انتبهتُ أنّني لم أكن الشّخص الوحيد الذي يرتاد ذلك المكان ما إن تُفتح أبوابه، وكنتُ ألاقي أحياناً وجهاً لوجه عند زاوية عامرة بالشجر رجلاً عجوزاً قصير القامة غريب الأطوار.

كان ينتعل حذاء له عقْلة فضيّة، وسروالاً عالي الخصر، وسترة إسبانيّة تبغيّة اللّون، وقطعة من الدّانتيل بمثابة ربطة عنق، وقبّعة رماديّة عجيبة عريضة الحواشي طويلة الوبر تذكّر بالطّوفان. كان هزيلاً، لا بل شديد الهُزال، بارز العظام ومقطّب الوجه وإن يكن دائم الابتسام. كانت عيناه المتوقّدتان دائمتَي الارتعاش تحت حركة جفنيه المتواصلة. وكان دائماً ما يحمل في يده عصا بديعة ذات مقبض ذهبيّ تشكّل بالنّسبة إليه على الأرجح ذكرى رائعة.

في البداية عجبتُ لأمرِ ذلك الرّجل، ثمّ أثار بالغَ اهتمامي. فكنتُ أراقبه من خلال جدار أوراق الشّجر وأتبعه عن بُعد، متوقّفاً عند منعطف الخمائل حتّى لا يراني.

وذات صباح، ولمّا كان يظنّ نفسه وحيداً في المكان، راح يقوم بحركاتٍ غريبة: قام في البداية ببضع قفزات وأتبعَها بانحناءةِ توقير. ثمّ وثَبَ بساقيه الهزيلتين وثبةً تصاليبّة لا تزال نشِطة، ثمّ بدأ بالدّوران حول نفسه بأناقة وجعل ينطنط ويتهزّز بشكلٍ طريفٍ ويبتسم كما لو أمام جمهور، ويتظارف ويجعل ذراعيه على شكل دائرة ويلوي جسمه المسكين الشّبيه بدمية ويوجّه في الفضاء تحيّات صغيرة مؤثّرة ومثيرة للضّحك. كان في الواقع يرقص!

بقيتُ مصعوقاً من المفاجأة، أتساءل من منّا المجنون، أنا أم هو.

لكنّه توقّف فجأةً وتقدّم مثلما يفعل الممثّلون على خشبة المسرح، ثمّ انحنى وهو يتراجع وعلى وجهه ابتسامات لطيفة وقبلات ينثرها بيده المرتجفة على صفّي الأشجار المقلّمة.

ثمّ أكمل نزهته بوقار.

ومنذ ذلك اليوم لم أدعه يبتعد عن ناظريّ. وكلّ صباح كان يعاود تمرينه العجيب.

فأخذَتني رغبة جامحة في التّحدّث إليه. فجازفتُ وقلتُ له بعدما ألقيتُ التّحيّة:

- الطّقس جميلٌ جدّاً اليوم يا سيّدي.

فانحنى محيّياً:

- أجل يا سيّدي، إنّه لطقسٌ جديرٌ بالأزمنة الخوالي.

وبعد ثمانية أيّام بتنا صديقَين وحكى لي قصّته.

لقد كان أستاذاً للرّقص في الأوبرا في عهد الملك لويس الخامس عشر. وعصاه الجميلة كانت هديّة من كونت كليرمون. وعندما يحدّثه المرء عن الرّقص ما كان ليتوقّف عن الكلام.

وذات يوم باح لي بما يلي:

- لقد تزوّجتُ لا كاستريس[1]. سأعرّفك عليها إن أردتَ ولكنّها لا تأتي إلى هنا إلاّ عصراً. إنّ هذه الحديقة تجسّد متعتنا وحياتنا. فهي كلّ ما تبقّى لنا من الماضي. ونحن نشعر بأنّنا لن يكون لنا من حياة إنْ نحنُ فقدناها. فهي قديمة وباذخة، أليس كذلك؟ فيها أتنفّس هواءً لم يتغيّر منذ شبابي. أنا وزوجتي نمضي فيها عصر كلّ يوم. أمّا أنا فآتي كلّ صباح لأنّني أستيقظ باكراً.

وما إن أنهيتُ غدائي حتّى رجعتُ إلى اللّوكسمبورغ، وسرعان ما لمحتُ صديقي مانحاً ذراعه بأبّهة لامرأةٍ عجوز ترتدي ثياباً سوداء قدّمني إليها. كانت تلك هي لا كاستريس، الرّاقصة الكبيرة التي كانت محبوبة الأمراء ومحبوبة الملك ومحبوبة ذلك العصر الغزِل كلّه الذي يبدو أنّه ترك في العالم أريجاً من

(1) لا كاستريس La Castris اسم قديم يعني باللاّتينيّة «قلعة» وكذلك «مخيّم» و«معكسر»، ولم نجد أثراً لراقصة حقيقيّة بهذا الاسم، فالشخصية من ابتكار الكاتب، المحض (المترجمة).

الحبّ.

وجلسنا على مقعد. كنّا في شهر أيّار. وعبق الزّهور يتطاير في الممرّات البالغة النّظافة. وشمسٌ جميلة تتسرّب بين الأوراق وتنثر علينا حبّات من الضّوء كبيرة. وكان فستان لا كاستريس الأسود يبدو خضِلاً بالنّور. كانت الحديقة خالية وفي البعيد كان يُسمع وقع مرور الحناطير.

وقلتُ للرّاقص العجوز:

- هلاّ شرحتَ لي ما هي رقصة «المونُويه»؟

فانتفض!

- «المونُويه» يا سيّدي ملكة الرّقصات ورقصة الملكات، أتفهم؟ ومنذ لم يعد عندنا ملوك، لم تعد لدينا مونُويه.

وبدأ بأسلوب مفخّم خطاباً تقريظيّاً لم أفقه منه شيئاً. فأنا أردتُ أن يصف لي الخطوات وكلّ الحركات والوقفات. وكان يضيع في شروحه حانقاً من عجزه ومتوتّراً وآسِفاً.

وفجأةً، التفت صوب رفيقته القديمة الصّامتة والدائمة الوقار وقال لها:

- إليز، أترضين، قولي، سيكون ذلك لطيفاً من قبلك، أترضين أن نُري هذا السيّد ما هي هذه الرّقصة؟

فتطلّعت من كلّ الجهات بعينين قلقتين، ثمّ نهضت من دون

أن تقول كلمة ووقفت قبالته.

فرأيتُ شيئاً لا يُنسى.

كانا يروحان ويجيئان وعلى وجهيهما تعابير طفوليّة، ويبتسم أحدهما للآخَر، ويتأرجحان وينحنيان ويتواثبان مثل دميتين قديمتين ترقّصهما آليّة عتيقة شبه مكسورة صنعها في ما مضى حرفيّ شديد المهارة وفقَ الطّريقة التي كانت تُصنع بها في زمنه.

وكنتُ أنظر إليهما وقلبي يختلج بمشاعر خارقة للعادة ونفسي يجيش فيها حزنٌ لا يوصف. بدا لي أنّني أشاهد رؤيا مُضحكة ومؤسية في آنٍ، شبحاً قديم الطّراز لقرنٍ بكامله. كانت تحدوني رغبة في الضّحك وحاجة إلى البكاء.

وفجأةً توقّفا. كانا قد أنهيا سلسلة حركات الرّقصة. وطوال بضع ثوانٍ بقيا واقفين الواحد في مواجهة الآخر وعلى وجهيهما تعابير مُفاجئة. ثمّ تعانقا وهما يجهشان بالبكاء.

وبعد ثلاثة أيّام، غادرتُ إلى الرّيف. ولم أرَهما مجدّداً. وعندما عدتُ إلى باريس بعد مضيّ سنتين كان المشتل قد أُزيل. ماذا حلّ بهما في غياب حديقة الزّمن الماضي الغالية على قلبيهما، ببساتينها المتاهيّة وعبق الماضي الذي تحمله ومنعطفات الخمائل الأنيقة؟

أتراهما تُوفّيا؟ أم أنّهما يهيمان في الشّوارع الجديدة كمنفيّين بلا رجاء؟ أيرقصان، طيفين واهيَين، رقصة «مونُويه» خياليّة

بين أشجار السّرو في أحد المدافن، على امتداد الدّروب المزدحمة بالأضرحة، تحت ضوء القمر؟

إنّ ذكراهما تلازمني، تستحوذ عليّ، تعذّبني، تسكنني كمثْلِ جُرح. لماذا؟ لا أدري.

أرجّح أنّكم تجدون هذا سخيفاً، أليس كذلك؟

20 تشرين الثّاني/نوفمبر 1882

الحِليَة

كانت واحدة من أولئك الفتيات الجميلات والسّاحرات اللّائي وُلدن، كما لو بخطإٍ من القدر، في عائلةٍ من المستخدَمين. لم يكن لديها مهر ولا آمال لا ولا أيّة وسيلة ليعرفها ويفهمها ويحبّها ويتزوّجها رجل ثريّ ورفيع المقام. فرضيت بتزوّج موظّف صغير في وزارة التّعليم العموميّ.

ولأنّها لم يكن بوسعها أن تتزيّن فقد بقيت بمظهر بسيط، ولكنّها كانت تعيسة مثل شخصٍ سُلِخَ من محيطه الخاصّ. ذلك أنّ النّساء لا ينتمين إلى طبقة اجتماعيّة أو سلالة بعينها، فجمالهنّ ولطافتهنّ وسحرهنّ، هذا كلّه يقوم مقام النّسب والعائلة.

ورهافتهنّ الفطريّة وحسّ الأناقة لديهنّ وذكاؤهنّ، هي بمثابة مرتبتهنّ الاجتماعيّة الوحيدة، وهي التي تجعل من فتيات العامّة أنداداً لأرفع السيّدات مقاماً.

فكانت تتألّم باستمرار لأنّها تشعر بأنّها إنّما خُلقَت لكلّ ضروب التّرف والرّفاهية. فكانت تتألّم من فقر بيتها وبؤس الجدران وتلَف المقاعد وقبح السّتائر. كلّ هذه الأشياء التي لم تكن حتّى لتلاحظها أيّ امرأةٍ سواها من منزلتها الاجتماعية، كانت تعذّبها وتُثير سُخطها. ورؤية الفتاة البروتانيّة[1] التي تنظّف لها بيتها المتواضع كانت توقظ فيها حسرات حزينة وأحلاماً جامحة. فكانت تفكّر في غُرَف الانتظار النّظيفة المنجّدة بالسّتائر الشّرقيّة والمُضاءة بشمعدانات البرونز السّامقة، وفي الخادمين الطّويلَي القامة بسرواليهما القصيرين، اللّذين يغفوان في المتّكآت العريضة وقد أنعَستهما حرارة جهاز التّدفئة، المرتفعة. كما كانت تفكّر في غُرَف الاستقبال الواسعة الملبّسة بالحرير القديم، وفي الأثاث الأنيق الذي تعلوه تُحَفٌ لا تقدّر بثمن، وفي الصّالونات الصّغيرة الأنيقة والعَطِرة المخصّصة للسّمَر الذي يدوم خمس ساعات مع الأصدقاء الأكثر حميميّة، الرّجال المعروفين والمرغوبين الذين تشتهي جميع النّساء إثارة اهتمامهم.

(1) نسبة إلى البروتاني، منطقة في فرنسا (المترجمة).

وعندما كانت تجلس للعشاء أمام الطّاولة المستديرة المغطّاة بشرشف لم يُبدّل منذ ثلاثة أيّام، قبالة زوجها الذي يقول وهو يكشف عن وعاء الحساء: «آه! يا لليخنة اللّذيذة! ليس هناك ما هو أفضل من هذا!»، كانت هي تفكّر في مآدب العشاء الفاخرة بأوانيها الفضيّة اللّامعة والنّجود التي تملأ الجدران بصوَر الشّخوص القديمة والطّيور الغريبة وسطَ غابة سحريّة. وكانت تفكّر في الأطعمة الفاخرة المقدّمة في أوانٍ رائعة، وفي الملاطفات التي تُقال همساً فتُسمَع مع ابتسامةٍ غامضة بينما يؤكَل لحم سمك التّروتة[1] الورديّ أو أجنحة الدّجاج البريّ.

لم تكن تملك ملابس فاخرة ولا حليّاً، لا شيء. ولم تكن تحبّ إلاّ هذه الأشياء. وكانت تشعر أنّها خُلقَت لها. ولطالما رغبت بشدّة في أن تكون محطّ إعجابٍ وحسدٍ، وبأن تكون فاتنة ومشتهاة.

كان لديها صديقة ثريّة، رفيقة من أيّام مدرسة الرّاهبات لم تعد تريد أن تراها لفرط ما كانت تتألّم بعد رجوعها من عندها. وكانت تبكي أيّاماً كاملة حزناً وأسفاً ويأساً وشقاءً.

وذات مساءٍ عاد زوجها بهيئةٍ ظافرةٍ وهو يحمل في يده مغلّفاً عريضاً، وقال لها:

---

(1) التروتة: جنس سمك نهريّ مرقّط من السّلمونيّات (المترجمة).

- تفضّلي، هذا لكِ.

فمزّقت الورق بحماس وأخرجت بطاقةً تحمل هذه الكلمات:

«وزير التّعليم الرّسمي والسيّدة جورج رامبونّو يتشرّفان بدعوة السيّد والسيّدة لوازيل إلى أمسية تُقام في مركز الوزارة، يوم الاثنين 18 كانون الثّاني».

ولكن بدل أن تفرح كما كان يأمل زوجها، ألقت بالدّعوة على الطّاولة وهي تتمتم:

- ماذا تريدني أن أفعل بها؟

- ولكن يا حبيبتي ظننتكِ ستفرحين. فأنتِ لا تخرجين أبداً، وهذه فرصة، فرصة جميلة! لقد بذلت كلّ جهدي للحصول عليها. فالجميع يرغب في الحصول على هذه الدّعوات، فهي مرغوبة جدّاً ولا يُعطى الكثير منها للموظّفين. سترين هناك المجتمع الرّسميّ كلّه.

أمّا هي فجعلتْ تنظر إليه بغيظ، ثمّ قالت وقد عيل صبرها:

- وماذا تريدني أن أرتدي لأذهب إلى هناك؟

لم يكن فكّر في الموضوع، فقال متلعثماً:

- الفستان الذي ترتدينه للذّهاب إلى المسرح. يبدو لي ملائماً جدّاً...

ثمّ سكت وقد أصيب بالذّهول لرؤية زوجته تبكي. فقد

كانت دمعتان كبيرتان تسيلان من طرَفي عينيها صوب طرَفي فمها. فقال متلعثماً:

- ما بكِ؟ ما بك؟

ولكنّها سيطرت على حزنها بجهدٍ عنيفٍ وأجابت بصوتٍ هادئٍ وهي تمسح خدّيها البليلَين:

- لا شيء. كلّ ما في الأمر أنّه ليس لديّ ما أرتديه للمناسبة وبالتّالي لا يمكنني الذّهاب إلى هذه الحفلة. أعطِ بطاقتك لأيّ زميل لك زوجته أفضل منّي كسوة.

كان حزيناً. فتابع:

- حسناً يا ماتيلد! كم يكلّف ثوبٌ لائقٌ يمكن أن تلبسيه في مناسباتٍ أخرى؟ ثوب يكون شديد البساطة.

فأعملتْ فكرها لبضع ثوانٍ لتراجع حساباتها وتفكّر في المبلغ الذي يمكنها طلبه ولا يستدعي رفضاً فوريّاً وصيحةَ ذعرٍ من الموظّف المُقتصِد.

وأخيراً، أجابت متردّدةً:

- لا أعرف بالضّبط، ولكن يبدو لي أنّه يمكن أن أتدبّر أمري بأربعمائة فرنك.

شَحُبَ قليلاً لأنّه كان قد ادّخر هذا المبلغ تحديداً لشراء بندقيّة والذّهاب في رحلات صيد الصّيف القادم في سهل نانتير، برفقة

بعض الأصدقاء الذين يقصدون تلك المنطقة في الآحاد لصيد القبّرات.

ومع ذلك قال:

- فليكن. أعطيكِ أربعمائة فرنك. ولكن حاولي العثور على ثوبٍ جميل.

ومع اقتراب موعد الحفلة كانت السيّدة لوازيل تبدو حزينة وقلقة ومشغولة البال، مع أنّ ثوبها كان قد بات جاهزاً. فقال لها زوجها ذات مساء:

- ما بكِ؟ تبدين غريبة منذ ثلاثة أيّام.

فأجابت:

- يزعجني أنّني لا أملك حليَة أو حجراً كريماً أضعه. سأبدو شديدة البؤس. أكاد أرغب في عدم الذّهاب إلى هذه الحفلة.

فتابع قائلاً:

- يمكن أن تضعي أزهاراً حقيقيّة. فذلك أنيق جدّاً في هذا الموسم.

فلم تقتنع.

- كلاّ... ليس هناك ما هو أكثر إذلالاً من أن تبدو الواحدة فقيرة في وسطِ نساءٍ ثريّات.

فهتف زوجها:

- كم أنتِ حمقاء! اذهبي إلى صديقتكِ السيّدة فوريستييه واسأليها أن تُعيركِ جواهر. فصداقتكما حميمة بما يكفي لتطلبي منها شيئاً كهذا.

فأطلقت صرخة فرح:

- هذا صحيح! لم أفكّر في هذا قطّ!

وفي اليوم التّالي ذهبتْ عند صديقتها وحكتْ لها ضائقتها. فتوجّهت السيّدة فوريستييه إلى خزانتها ذات المرآة وأخرجت منها صندوقاً كبيراً، وعادت به وفتحته وقالت للسيّدة لوازيل:

- اختاري يا عزيزتي.

فرأت في البداية أساور ثمّ طوقاً من اللآّلئ وصليباً من النّوع الذي يُصنَع في البندقيّة، وذهباً وحجارةً كريمة مدهشة الإتقان. فكانت تجرّب الحليّ أمام المرآة وتتردّد وهي عاجزة عن خلعها وإعادتها. ولم تكفّ عن السّؤال:

- أليس لديكِ شيءٌ آخر؟

- بلى طبعاً. ابحثي. لا أعرف ما الذي يمكن أن يُعجبك.

وفجأةً اكتشفت، في علبةٍ من السّندس الأسود، عقداً من الماس رائعاً. وراح قلبها يخفق برغبةٍ جامحة. وكانت يداها ترتجفان وهي تحمله. فوضعته حول عنقها على فستانها المرتفع

الياقة وظلّت مفتونةً أمام صورتها.

ثمّ سألت صديقتَها وهي متردّدة ويملأها القلق:

- أيمكنك أن تعيريني هذا، هذا فقط؟

- طبعاً، بالتّأكيد.

فارتمت على صديقتها وعانقتها وقبّلتها بحماسة بالغة ثمّ أسرعت بالرّحيل حاملةً كنزها.

وجاء يوم الحفلة. ولقيَت السيّدة لوازيل نجاحاً. فقد كانت الأجمل بين الجميع، أنيقة ورشيقة ومُبتسمة وجذلى. كان كلّ الرّجال ينظرون إليها ويسألون عن اسمها ويسعون ليُقدَّموا إليها. وكلّ الملحَقين بمكتب الوزارة كانوا يريدون الرّقص معها. كما لفتت انتباه الوزير.

فكانت ترقص بنشوةٍ وجنونٍ، ثَملةً من اللّذة، لا تفكّر في شيء، غارقةً في انتصار جمالها وعظمة نجاحها، في ضربٍ من غيمةِ سعادةٍ مصنوعة من كلّ ذلك الإطراء وكلّ ذلك الإعجاب وكلّ تلك الرّغبات التي أثارتْها هي، وذلك الظّفر الكامل والبالغ الرّقة في تأثيره على قلب النّساء.

وغادرت في حوالى الرّابعة فجراً. وكان زوجها يغفو منذ منتصف اللّيل في صالةٍ صغيرة خالية مع ثلاثةِ رجالٍ آخرين

كانت زوجاتهم يستمتعن بشدّة.

فألقى على كتفيها الملابس التي كان قد أحضرها للخروج، ملابس متواضعة من الحياة العاديّة يتنافر فقرها وأناقةَ ثوب الحفلة. وشعرتْ هي بذلك وأرادَت الهرب حتّى لا تراها النّساء الأخريات اللّواتي كنّ يتدثّرن بالفراء الثّمين.

فأوقفها لوازيل قائلاً:

- ولكن انتظري. سوف تُصابين بالبرد في الخارج. سأوقف حنطوراً.

ولكنّها لم تسمعْه ونزلت الأدراج مسرعة. وعندما باتا في الشّارع لم يجدا عربةً فراحا يفتّشان عن واحدة ويُناديان الحوذيّين الذين كانوا يَلوحون لهما مارّين من بعيد.

فكانا يتقدّمان نزولاً باتّجاه نهر السّين مُحبَطَين ومُرتَعدَين برداً. وأخيراً وجدا على الرّصيف إحدى تلك العربات اللّيليّة العتيقة التي لا تُرى في باريس إلاّ مع هبوط اللّيل، كما لو أنّها تخجل من بؤسها خلال النّهار.

فأوصلتهما حتّى باب منزلهما في «شارع الشّهداء» وصعدا إلى بيتهما حزينين. بالنّسبة إليها، كان كلّ شيءٍ قد انتهى. أمّا هو فكان يفكّر في أنّه يجب أن يكون في الوزارة في السّاعة العاشرة.

وأمام المرآة، خلعت الملابس التي كانت قد غطّت بها كتفيها

لترى نفسها مرّة أخرى محاطةً بهالةِ أناقتها. ولكنّها صرخت فجأة، فالعقد لم يكن موجوداً حول عنقها!

فسألها زوجها وكان قد خلع نصف ثيابه:

- ما بكِ؟

فالتفتت إليه مذعورة:

- لقد... لقد... أضعتُ عقد السيّدة فوريستييه.

فانتفض بشدّة:

- ماذا!... كيف!... هذا مستحيل!

وراحا يبحثان في طيّات الفستان، وفي طيّات المعطف، وفي الجيوب، وفي كلّ مكان. ولكنّهما لم يجدا له أثراً.

فسألها:

- أأنتِ واثقة من أنّه كان ما يزال عليكِ عندما غادرتِ الحفل؟

- أجل، لقد لمستُه في بهو الوزارة.

- ولكن لو أنّكِ أسقطتِه في الشّارع، لكنّا سمعنا وقعَ سقوطه. إنّه على الأرجح في العربة.

- أجل، هذا ممكن. هل أخذتَ رقمها؟

- كلاّ. وأنتِ، ألم تريه؟

- كلاّ.

كان كلّ منهما ينظر إلى الآخَر مصعوقاً. وفي النّهاية ارتدى

لوازيل ملابسه مجدّداً وقال:

- سأذهب لأقطع ثانيةً المسافة التي عبرناها مشياً فلربّما عثرتُ عليه.

وخرج. وبقيت هي بثياب السّهرة عاجزة عن أن تخلد إلى النّوم ومنهارة على كرسيّ وسط البرد لا تفكّر في شيء.

عاد زوجها في حوالى السّابعة. ولم يكن قد وجد شيئاً.

ذهب إلى مركز الشّرطة، وإلى الصّحف ليَعِد من يعثر على العقد بمكافأة، وإلى شركات العربات الصّغيرة، وإلى كلّ مكان كان وميضٌ من الأمل يدفعه إليه.

أمّا هي فانتظرت طوال النّهار في حالة الذّهول نفسها أمام هذه الكارثة الفظيعة.

وعاد لوازيل مساءً ضامر الوجه شاحباً. فلم يكن قد عثر على شيء.

وقال لها:

- يجب أن تكتبي لصديقتك لتخبريها بأنّكِ كسرتِ مشدّ العقد وأنّك بعثت به للتّصليح. هذا سيمنحنا الوقت لنجد حلّاً.

فكتبت وهو يُملي عليها.

وبعد مرور أسبوع، كانا قد فقدا كلّ أمل.

فقال لوازيل وقد بدا أكبر بخمس سنوات ممّا هو عليه:

- يجب أن نجد وسيلةً للعثور على بديل للعقد.

وفي اليوم التّالي حملا العلبة التي كانت تحتويه وتوجّها إلى الصّائغ الذي كان اسمه مكتوباً داخلها. فراجع دفاتره وقال لهما:

- لستُ أنا يا سيّدتي من باع هذا العقد. وحدها العلبة من عندي.

ومن صائغٍ إلى آخر راحا يبحثان عن حليةٍ شبيهةٍ بالأخرى، مُراجعَين ذكرياتهما، معتلَّين حزناً وقلقاً.

ووجدا في محلٍّ في «باليه روايال» عقداً من الماس بدا لهما مشابهاً تماماً لذلك الذي يبحثان عنه. كان يساوي أربعين ألف فرنك. وارتضى الصّائغ أن يتركه لهما بستّة وثلاثين ألفاً.

فرجَواه ألاّ يبيعه قبل ثلاثة أيّام. واشترطا عليه أن يعيد اشتراءه منهما بأربعة وثلاثين ألف فرنك في حال عُثِرَ على العقد الأوّل قبل نهاية شباط.

كان لوازيل يملك ثمانية عشر ألف فرنك ورثها من أبيه. واقترض الباقي.

اقترضَ سائلاً ألفَ فرنكٍ من هذا وخمسمائة من ذاك، وخمس لويسيّات من هنا وثلاثاً من هناك. ووقّع السّندات وأخذ تعهّداتٍ باهظةً وتعامل مع المُرابين وشتّى أنواع المُقرِضين. وجازف بكلّ

ما تبقّى من حياته، موقّعاً على سندات وهو لا يعرف حتّى إن كان قادراً على الوفاء بها. ومرعوباً من شدائد المستقبل ومن البؤس المدقع الذي سيُصيبه ومن فكرة كلّ ألوان الحرمان الماديّ والعذابات النفسيّة، ذهب ليُحضِر العقد الجديد واضعاً على منضدة البائع ستّة وثلاثين ألف فرنك.

ولّما أعادت السيّدة لوازيل الحلية للسيّدة فوريستييه، قالت لها هذه الأخيرة بنبرة ممتعضة:

- كان عليك إعادتها لي بأكثر سرعة، فقد كان يمكن أن أحتاج إليها.

ولم تفتح العلبة، الأمر الذي كانت تخشاه صديقتها. فماذا لو انتبهت لعمليّة الاستبدال؟ فيمَ كانت ستفكّر؟ ما كانت ستقول؟ أما كانت ستعتبرها سارقة؟

وعاشت السيّدة لوازيل حياة المحتاجين الفظيعة. ولكنّها تصدّت لها فجأةً بشكلٍ بطوليّ. إن كان يجب تسديد تلك الديون الهائلة، فستسدّدها. استَغنيا عن الخادمة وانتقلا من مسكنهما ليستأجرا سقيفةً فوق أحد السّطوح.

وعرفَت أعمال التّنظيف الشاقّة وأشغال المطبخ البغيضة. فغسلت الصّحون مُتلفةً أظافرها الورديّة على الآنية المشبعة

بالدّهن وفي قعر الطّناجر. وفركت بالصّابون الغسيلَ الوسخ، القمصان والمماسح، وكانت تنشرها على حبلٍ لتنشف. وكلّ صباح كانت تُنزِلُ النّفايات إلى الشّارع وتُصعِدِ الماء متوقّفةً عند كلّ طابق لتستعيد أنفاسها. وفي ثيابٍ كتلك التي ترتديها نساء العامّة، كانت تذهب عند بائع الفاكهة والبقّال واللّحّام متأبّطةً سلّتها فتساوم وتتعرّض للشّتائم وتدافع عن نقودها البائسة فلساً فلساً.

وكلّ شهر، كان يجب تسديد مستحقّات السّندات وتجديد أخرى وتأجيلها.

وكان زوجها يعمل مساءً على ترتيب حسابات أحد التّجّار، وفي اللّيل غالِباً ما كان يعمل ناسخاً، متقاضياً خمسة فلوس عن الصّفحة.

وعاشا على هذا المنوال عشر سنوات.

وفي نهاية تلك السّنوات العشر، كانا قد ردّا المبلغ كلّه، مع نسبة الرّبا والفوائد المتراكمة.

وصارت السيّدة لوازيل تبدو عجوزاً. لقد باتت امرأة قويّة وصلبة وقاسية على غرار النّاس الفقراء. بتسريحتها الرّديئة وتنّورتها المقلوبة ويديها المحمرّتين، كانت تتكلّم بصوتٍ مرتفع وتغسل الأرضيّات بالماء الوفير. ولكن أحياناً، عندما يكون

زوجها في المكتب، كانت تجلس أمام النّافذة وتفكّر في تلك الحفلة التي كانت فيها بالغة الجمال ونالت فيها إطراء الجميع.

ماذا كان ليحدث لو لم تُضيّع تلك الحلية؟ من يدري؟ من يدري؟ كم أنّ الحياة غريبة وقُلَّب! يكفي القليل لينتكس المرء أو ينجو!

وذات يوم أحدٍ، ذهبت لتتمشّى في جادّة الشّانزيليزيه لترتاح من أشغال الأسبوع، فلمحت فجأةً امرأةً تنزّه طفلاً. كانت تلك هي السيّدة فوريستييه، دائمة الشّباب والجمال والسّحر.

فشعرت السيّدة لوازيل بالتّأثّر. أتكلّمها؟ طبعاً ستفعل. والآن وقد سدّدت كلّ الدّيون ستخبرها بكلّ شيء. لمَ لا؟

ودنَت منها.

- صباح الخير يا جانّ.

فلم تعرفها هذه الأخيرة واستغربت أن تُناديها امرأة من العامّة بهذه الطّريقة الحميمة.

فقالت مُتلعثمةً:

- ولكن... سيّدتي!... لا أعرف... أنتِ مُخطئة على الأرجح.

- كلاّ. أنا ماتيلد لوازيل.

فصرخت صديقتها:

- أوه!... يا صديقتي المسكينة، كم تغيّرتِ!...

- أجل، فقد عرفتُ أيّاماً صعبة منذ أن كففتُ عن رؤيتك، وشتّى أنواع البؤس... وكلّ هذا بسببك!...

- بسببي أنا... كيف هذا؟

- أتذكرين ذلك العقد الماسيّ الذي أعرتني إيّاه للذّهاب إلى حفلة الوزارة؟

- أجل. ماذا عنه؟

- لقد أضعتُه.

- كيف ذلك وقد أرجعتِه إليّ!

- لقد أعدتُ لكِ عقداً مشابهاً له تماماً. وقد بقينا عشر سنوات ندفع ثمنه. تفهمين أنّ هذا لم يكن سهلاً علينا، فنحن لم نكن نملك شيئاً... ولكن الآن انتهى كلّ شيء، وأنا شديدة السّعادة.

كانت السيّدة فوريستييه قد توقّفتْ عن السّير.

- أتقولين أنّكِ اشتريتِ عقداً من الماس لاستبدال عقدي؟

- أجل. لم تنتبهي إلى هذا! فقد كانا متشابهين تماماً.

وكانت تبتسم بفرحٍ فخورٍ وساذج.

وببالغ التّأثّر أمسكت السيّدة فوريستييه بيديها وقالت لها:

- أوه! يا صديقتي المسكينة! ولكنّ عقدي كان مزيّفاً. كان يساوي خمسمائة فرنكٍ على الأكثر!...

17 شباط/فبراير 1884

«صديقان» وقصص أخرى

تابعت الأمَ سوفاج حياتها العاديَة في كوخها الذي سرعان ما غطّته الثّلوج. وكانت تأتي إلى القرية مرّة في الأسبوع لتشتري الخبز والقليل من اللّحم، ثمّ ترجع إلى كوخها. وإذ كان يُحكى عن وجود ذئاب في الأنحاء، كانت تخرج حاملةً البندقيّة على ظهرها، بندقيّة ابنها الصّدئة التي بليَ عقبها من جرّاء احتكاك اليد به. كانت هيئة الأمّ سوفاج تثير الفضول وهي تسير بخطوات بطيئة على الجليد، منحنية قليلاً وفوهة البندقيّة ترتفع فوق قلنسوتها السّوداء المشدودة بإحكام على رأسها والتي تُخفي شعرها الأبيض الذي لم يره أحدٌ يوماً.





